معارك حمص الثلاث بين المماليك والمغول
(1260م، 1281م، 1299م)

د/حجازي عبد المنعم سليمان
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب– جامعة المنوفية

معارك حمص الثلاث بين المماليك والمغول
(1260م، 1281م، 1299م)

كان للمغول أطماع واسعة في حكم العالم بحيث خرجوا من بلدانهم في شرق آسيا واجتاحوا أغلب قارة آسيا وصولًا إلى غربها وهاجموا أوربا وهددوا مصر من خلال بلاد الشام، ثم تحطمت أمالهم في معركة عين جالوت 1260م على أيدي المماليك وما تلاها من معارك دارت بين الطرفين. وقد رسخ في عقيدة المغول أن المماليك يتحملون مسئولية إجهاض حلمهم الكبير، وحينما قرروا محاربة المماليك والانتقام منهم فإن معارك حمص الثلاث كانت أحد أهم ارهاصات تلك الرغبة الانتقامية.

وتعالج هذه الدراسة معارك حمص الثلاث التي وقعت بين المماليك والمغول من خلال عدة عناصر يتصدرها تحديد طرفي المعارك الثلاث وتسميتهم، وتاريخ وقوع المعارك الثلاث والدراسات السابقة وأهمية الدراسة وجدواها، وطبوغرافية مدينة حمص وأهمية موقعها الذي وقعت فيه أحداث تلك المعارك ثم أهم مقدماتها وأسبابها، وحجم الجيوش لدى الطرفين وتشكيلاتها وأهم العناصر المشاركة وتسليحها، ثم عالج الباحث أهم أحداث المعارك الثلاث والنتائج المترتبة عليها في دراسة مقارنة بين المقدمات والأحداث والنتائج.

ويهدف الباحث إلى الوقوف على المعارك الثلاث في حمص فحسب بصورة مركزة، للوقوف على دور المماليك والمغول وحدهما فيها، في دراسة مقارنة بين المقدمات والأسباب والنتائج لتسليط الضوء على القواسم المشتركة بين المعارك الثلاث والتطور النوعي في خططها والمصير الذي آلت إليه، وأهم النتائج التي ترتبت عليها.

أطراف المعارك الثلاث وتاريخ وقوعها:

أما أطراف تلك المعارك وتسميتهم فقد خاضها المماليك من جهة ومغول فارس – أو إيلخانات فارس– تمييزًا لهم عن مغول القفجاق الذين كانوا على وفاق مع دولة المماليك

من جهة أخرى، وليس من المنهج التاريخي استخدام التسمية الدينية في الإشارة إلى المماليك بأنهم مسلمين ثم نعرض عن المغول تمامًا بقول المغول فقط دون تسمية دينية مماثلة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التسمية الدينية غير مانعة بسبب مشاركة بعض أمراء المماليك في صفوف المغول على ما حدث في حمص الثانية والثالثة وهم مسلمون بالطبع، ناهيك عن أن غازان ذاته الذي قاد حمص الثالثة كان مسلمًا هو وبعض جنوده، وبالتالي لا يصح منهجيًا التفرقة بين الطرفين بمسلمين وغير مسلمين.

وعلي الرغم من وجود حلفاء مع المغول سواء من الصليبيين أم الأرمن أم الكرج في المعارك الثلاث أو في بعضها فإن القيادة والتحرك والتوجيه والكثرة كانت من نصيب المغول، ومن ثم لا يتعارض مع المنهج استخدام تسمية المغول كقيادة وتنظيم بصفتهم الطرف الثاني للمعركة، ولأن بعض الشاميين وغيرهم شاركوا في تلك المعارك إلى جانب المماليك فلا يصح منهجيًا أيضًا استخدام تسمية المصريين كطرف ثاني لأنها تسمية غير جامعة وغير مانعة في ظل مشاركة المصريين والشاميين، ولأجل ذلك فإن الباحث سوف يسمي هذا الطرف بالمماليك كقيادة وحشد ومشاركة وأكثر تأثرًا بالنتائج.

وعن وقت وقوع تلك المعارك فقد حدث أولها في 10 من ديسمبر 1260م وعُرف باسم معركة حمص الأولى، وبعد حوالي 21 عاماً وقعت معركة ثانية بين الطرفين حملت اسم حمص الثانية في 29 من أكتوبر 1281م، وبعد حوالي 18 عاماً وقعت معركة ثالثة حملت اسم حمص الثالثة عام 28 من 23 من ديسمبر 1299م.

أهمية الدراسة وجدواها:

وتكمن أهمية الدراسة وجدواها من استعراض أوجه القواسم المشتركة بين المعارك الثلاث، ويتصدرها ثبوت مكان المعركة في شرقي حمص وشمالها الشرقي كمدخل مهم تحتم على الراغب في العبور إلى دمشق تخطيها وبالتالي فإنها كانت بمثابة خط أمني متقدم لدمشق وهذا ما أكدته ملابسات المعارك الثلاث.

ناهيك عن أنها وقعت جميعًا في ظل سلاطين المماليك البحرية الأقوياء، سواء في

ظل بيبرس على ما حدث في معركة حمص الأولى وقاد عنه المعركة الملك الأشرف موسى(1)، أو في ظل المنصور قلاوون على ما حدث في معركة حمص الثانية التي قادها قلاوون بنفسه، أم في ظل الناصر محمد بن قلاوون على ما حدث في معركة حمص الثالثة التي قادها الناصر محمد بنفسه أيضًا، ويُقابلهم لدى خانات المغول في الأولى بيدرا قائداً لهولاكو وفي الثانية منكوتمر(2) Monguodamor قائداً لأبغا خان (1234-1282م)(3)، وفي الثالثة الخان محمود غازان(1271 -1304م (4)بذاته.

إضافة إلي محاولة المغول في المرات الثلاث استغلال الوقت المناسب لمهاجمة المماليك، بحيث جاءت المعارك الثلاث في بداية حكمهم وقد واجه بعضهم معارضة شديدة من أمراء أنداد على ما حدث في عصري بيبرس وقلاوون تذرعًا باغتصابهما للعرش من الوريث صاحب الحق الشرعي وما هنالك من ادعاءات لقيادة معارضة قوية منعت بيبرس من قيادة جيشه لخوض حمص الأولى، واضطرت قلاوون إلى مصالحة مُعارضيه قبيل خوض المعركة(5)، أمام تدهور الوضع الداخلي وسوء أوضاع السلطنة المملوكية بسبب صراع الأمراء المتسلطين على أمور الحكم وقت عودة الناصر محمد لعرشه في المرة الثانية(6).

لقد انتصر المماليك في المعركتين الأولى والثانية انتصاراً مُلفتاً للنظر بينما خسر المماليك معركة حمص الثالثة وإن كانوا قد نجحوا في محو آثار هزيمتهم بعد قليل في معركة مرج الصفر عام 1303م(7)، ومن هنا يأتي هدف دراسة الموضوع وأهميته حينما حطمت تلك المعارك المتعاقبة كبرياء المغول وبطشهم وقوتهم، وظهور المماليك بمظهر طيب بتقديمهم مصالح الدولة التي حملت اسمهم وبات لهم فيها من الحقوق والواجبات التي ترقى لدرجة المواطنة على مصالحهم الخاصة والضيقة، وبدلًا من تهديد تلك المعارك لعروش السلاطين الثلاثة ودولتهم فإنها رسخت لأقدامهم في الحكم لفترة طويلة وعملوا على ازدهارمصر ورقيها، وزد على ذلك تمهيد معارك حمص الثلاث للقضاء على الخطر العسكري القادم من قبل المغول بتشذيبه وتخفيف حدته بحيث فتحت فيما بعد بابًا للحوار بين الطرفين.

طبوغرافية حمص(9) ومواقع المعارك الثلاث:

وتُعد حمص من المدن الشامية القديمة التي لعبت دورًا مؤثرًا في العصور القديمة وصدر الإسلام مع الفتوحات الإسلامية والفترة التالية لها، كما لعبت دورًا كبيرًا في العصرين الأيوبي والمملوكي بحيث صارت مركزًا عسكريًا مُهماً، وتواجدت بها بعض الفرق العسكرية وبخاصة حينما تحولت إلى نقطة انطلاق للحملات ضد الصليبيين في إمارة طرابلس(10). ومما زاد من قيمتها وقوعها على الطريق الشامي الداخلي الموازي لنهر العاصي الذي رطب من طقسها صيفًا، وسهل اتصالها بالبحر المتوسط سواء عن طريق طرابلس أم أنطرطوس التي تبعد عن حمص مسيرة يومين.

إضافة إلي قرب حمص من بادية الشام التي تتصل بها من خلال تدمر(11) التي تبعد عنها ثلاث مراحل، وسُلمية(12) التي تبعد عن حمص مسيرة يوم أو مرحلة(13)، كما تُعد حمص المحطة السابقة على دمشق مباشرة؛ فمن حلب إلى حمص خمس مراحل ومن حمص إلى دمشق خمس مراحل أيضاً، ومن ثم تحتم على كل من سعى لغزو دمشق المرور بحمص.

وقد وقعت معركة حمص الأولى عند قبر خالد بن الوليد الذي يقع في الزاوية الشمالية الغربية من حرم مسجد خالد بن الوليد، في منطقة الخالدية في الجهة الشمالية الشرقية من حمص(14)، أما حمص الثانية فوقعت شمال قبر خالد بن الوليد(15) بين القبر والرستن(16)، في موضع اسماه النويري بوطأة حمص(17)، بينما أشار مفضل ابن أبي الفضائل إلى حمص الثالثة باسم معركة وادي الخزندار(18) حيث وقعت في مجمع المروج – أو مرج المروج – شرقي حمص فيما بين حماة وحمص(19)، وهذا يعني أن المعارك الثلاث وقعت في شرق وشمال شرقي حمص حيث مدخل المدينة للقادم من الشمال من حماة متجهًا إلى جنوب بلاد الشام، وهنا يتضح سر حدوث المعارك الثلاث في تلك المنطقة في ظل هدف المغول الواضح في الاستيلاء على دمشق – بعد سيطرتهم على حلب وشمال الشام – تمهيدًا لدخول مصر(20).

الدوافع والمقدمات:

أشار المؤرخون إجمالاً إلى أن أحد أهم أسباب حدوث تلك المعارك بشكل مباشر هزيمة المغول على أيدي المماليك في معركة عين جالوت، فظلت رغبتهم في الثأر والانتقام قائمة ما يقرب من أربعين سنة تقريباً (1260-1299م). ويرى الباحث أن خوض المماليك لتلك المعارك جاء كرد فعل على خروج المغول المتكرر لمهاجمة بلاد الشام وبقية الممتلكات التابعة لسلطنة المماليك مما استوجب ضرورة رد المماليك بقوة(21)، وبالتالي فإنهم كانوا يُدافعون عن البلاد التي يحكمونها وعن حقوقهم فيها، بينما كانت رغبة التوسع فضلًا عن الانتقام واضحة لدى المغول فتعين على المماليك صدهم بخوض حروب دفاعية لدرأ الخطر عن بلادهم.

وقد سعى المغول إلى استغلال الوضع السياسي القائم في دولة المماليك مُمثلًا في خروج بعض الأمراء عن طوع السلطان القائم في الحكم، فاتصل المغول بهم ووعد بعضهم بمساعدتهم في محاربة المماليك، وعلى ما يبدو كان المغول أقل حرصًا ووعيًا للدرس الذي أكد نسيان المماليك لخلافاتهم الشخصية، وتغلبهم عليها وعودتهم لجبهة أقرانهم من المماليك في مصر قبيل حدوث تلك المعارك.

وقد أكدت معركتا حمص الثانية والثالثة صحة تلك الفرضية، بينما خلت حمص الأولى من ذلك النوع من الاتصال، أما سنقر الأشقر(22) فقد تخلى عن تحالفه مع المغول وانضم إلى جبهة المنصور قلاوون في معركة حمص الثانية(23)، وحينما رفض قبجق(24) الخارج عن طاعة الناصر محمد التراجع وتمسك بتحالفه مع المغول متناسيًا أقرانه من المماليك ومغلبًا مصلحته الخاصة على مصلحة المماليك فإنه قُدر لوقوفه بجوار غازان أن يكون أحد عوامل انتصار المغول في معركة حمص الثالثة(25)، وفي اللحظة التي قرر فيها غازان التراجع خوفًا من كمين ربما نصبه المماليك فقد شجعه قبجق على مواصلة مطاردة المماليك، ولكن تأكد بعد قليل صحة حرص المماليك على العودة حينما ندم قبجق على ما فعل ورضخ لطلب السلطان في الصلح(26)، وانضم له في معركته ضد غازان في مرج الصفر(27)،

وتتجسد الخلاصة في أن الرغبة المغولية التي قادتهم للخروج من مسقط رأسهم لغزو العالم وهزيمتهم في عين جالوت وتصدي المماليك لكل هجوم مغولي هي التي نتج عنها وقوع المعارك الثلاث وغيرها من المعارك الأخرى.

حجم جيوش الطرفين وتشكيلاتها والعناصر المشاركة فيها:

وقعت حمص الأولى حينما هاجم المغول بلاد الشام في الوقت الذي عجز فيه بيبرس عن مغادرة مصر؛ لأن المعركة حدثت في وقت تالي لمعركة عين جالوت وما نتج عنها على الجبهة المملوكية من مقتل قطز واعتلاء بيبرس عرش السلطنة المملوكية خلفاً له، مما جعل سنجر الحلبي(28) وغيره من المعارضين يخرجون على طاعة بيبرس ولأجل ذلك فقد ظل بيبرس(29) في القاهرة تحسباً لأية حركات معارضة وقاد المعركة الملك الأشرف موسى صاحب حمص وشاركه فيها الملك المنصور صاحب حماة وزامل بن علي أمير بني ربيعة في عدة من العربان، علاوة على حامية حلب المملوكية بقيادة حسام الدين الجوكندار(30)، وهذا يعني أن بيبرس لم يحشد لهذه المعركة أية قوات من خارج قوات بلاد الشام تقريبًا، ولذا لم يزد عدد الجيش الذي قاده الأشرف موسى عن 1400 ما بين فارس ومشاة.

بينما بلغ جيش المغول ستة ألاف(31)، بيد أن تلك القوات لم تكن سوى الحاميات المغولية المرابطة في إقليم الجزيرة، ومن نجا من المغول في عين جالوت، علاوة على فرقة من الصليبيين أرسلها فرسان إسبتارية حصن المرقب(32) مكونة من مائتي فارس لتقاتل إلى جوارهم في وقت شهد محاولات جادة لإحداث تحالف بين المغول وأوربا لتطويق العالم الإسلامي(33).

وفي حمص الثانية فقد قدم لها المقريزي مبكرًا حينما رصد تحرك المغول من ثلاث جهات: من جهة بلاد الروم ومن جهة الشرق ومن جهة المغول في ثلاث فرق أكثرها شرًا وقوة الأخيرة تحت قيادة منكوتمر بن هولاكو خان المغول(34)، وكان لوصول تلك الأنباء أسوأ الأثر على الجيش المملوكي حينما خاف الأمراء وقرر بعضهم الرحيل عن حلب وحماة وحمص ودمشق وشيزر وصهيون وغيرها إلى مصر، ودخل المغول حلب وأقاموا بها بضعة أيام

ثم رحلوا عنها في الوقت الذي تحرك فيه السلطان المنصور قلاوون (1279-1290م) لمقابلتهم ووصل إلى الشام ولكنه عاد حينما وقف على خبر عودتهم إلى بلادهم.

وقد أمر قلاوون رجاله في حصن الأكراد بمحاربة الصليبيين في المرقب(35)، ثم حشد كل من أمكنه استنفاره لهذه المعركة التي باتت بالنسبة له مهمة لوضع حد لهجمات المغول المتكررة على بلاد الشام، في وقت احتاج فيه إلى تثبيت موقفه الداخلي إزاء حركات المعارضة التي واجهت حكمه، بل إنه حرص على جذب بعض معارضيه وعلى رأسهم سنقر الأشقر إلى جانبه للإفادة من قوته وخبرته العسكرية. وضم جيش المماليك فرسان المماليك في مصر والشام علاوة على فرق من الأتراك والتركمان بينما قدم العربان في آل مرا وغيرهم فيما لا يقل عن أربعة آلاف كاملي التسليح بالسيوف والرماح والخيول(36).

وقدر جوزيف دو كانسي(37) Joseph De Cancy جيش المماليك بخمسين ألفاً، بينما قدره داوي صور بنحو 80000 فارس وحوالي 100000 راجل(38)، أما ابن كثير فأقر بأنه بلغ نصف عدد الجيش المغولي أي خمسين ألفاً (39) وكذا كان تقدير اليافعي(40)، وأقر المقريزي بطريق غير مباشر اجتماع ما يقرب من خمسين ألف جندي لقلاوون في دمشق خلال شهر المحرم 680هـ(41)، أي قبيل المعركة بخمسة أشهر تقريبًا.

أما الجيش المغولي فضمت تشكيلاته: المغول بقيادة منكوتمر والأرمن Armenian Kingdom of Cilicia بقيادة الملك ليون الثاني(1236-1289م) (42) King Leo II والكرج بقيادة الملك دميتري الثاني(1259-1289م) (43) King Demetrius II ولم يستطع هيو الثالث ملك قبرص King Hugh III of Cyprus الوصول حتى بداية المعركة وكذلك بوهيموند السابع أمير أنطاكية Boemond VII (44).

وقدر دو كانسي الجيش المغولي بأربعين ألفاً(45)، في الوقت الذي قدره ابن كثير بمائة ألف واليافعي(47) بمثلهم، وجاء تقدير بيبرس الدودار له بثمانين ألفاً(48)، ووافقه

كل من النويري والمقريزي بأنه بلغ ثمانين ألفاً، وانفرد النويري بأن ما يقرب من خمسين ألف منهم من المغول والباقي من الصليبيين والروم والكرج والأرمن، ثم اتفق كل من النويري والمقريزي على تركز أكثر من خَمسةُ وأربعون ألفاً من المغول في القلب وحدهُ(49). وأشار ابن أيبك إلى ورود أخبار قدوم المغول إلى قلاوون في مائة ألف في نهاية ربيع الآخر(50).

وقد أشار داوي صور إلى مراسلات أرغون(51) بالبابوية وملك فرنسا في محاولة للتحالف للتصدي للمماليك(52) ولكن لم يقف الباحث على أي نتيجة إيجابية لتلك المراسلات بحيث لم يكن لها تأثير في مجرى أحداث حمص الثانية(53). ويرى الباحث أن التقديرات التي قدمتها المصادر العربية والأجنبية لأعداد جيوش الطرفين قد شابها إما غلو في المبالغة في جيش الخصم أو بخس في تقدير العدد الحقيقي للجيش الصديق، ونظرًا لصعوبة البت في تلك التقديرات فقد قرر الباحث عرضها كما قدمها المؤرخون.

أما عن حياد الصليبيين في تلك المعركة فيقدم دو كانسي مبرراً غير مقنع لامتناع الصليبيين عن مساعدة المغول ممثل في أن المماليك ونوابهم في بلاد الشام كانوا يقعون بين الصليبيين وبين المغول، وأن المغول لم يُرسلوا إلى الصليبيين للالتحاق بهم بعد استقرارهم في المنطقة التي دارت أحداث المعركة في محيطها(54). ويصعب فهم ما قاله دو كانسي أو ما يهدف إليه سواء الانفصال الجغرافي أم الفصل التكتيكي بالوقوف في موقع يمنع الاتصال بين المغول والصليبيين.

وأيًا كان مقصد دو كانسي فإنه لم يكن دقيقاً في هذه الإشكالية، فقد كان الصليبيون مُجبرين على عدم الوقوف بجانب المغول بمقتضى اتفاقهم – الذي دخل فيه فرسان الإسبتارية – مع قلاوون لمدة عَشرُ سنوات بداية مايو 1279م(55)، وبالرغم من إشارة السيد الباز العريني إلى أن إسبتارية حصن المرقب لم يعتبروا أنفسهم داخلين في عقد الهدنة وانحازت جماعة منهم إلى ملك أرمينية(56) فإننا لم نقف في رواية دو كانسي ذاته – وهو أحد فرسان الإسبتارية – على ما يُفيد وقوف الإسبتارية أو غيرهم من الصليبيين بجوار المغول في حمص الثانية(57)، بينما كان النويري مقتضبًا في إشارته إلى مشاركة الصليبيين إلى جانب

المغول في تلك المعركة بحيث لم يوضح اسم المشارك منهم أو صفته أو عدده(58).

بيد أن التواصل بين صليبي الشام وأوربا بخصوص التحرك المغولي كان قائماً، بحيث كان الصليبيون يعلمون من خلال تقارير الغرب والرسائل التي يبعثون بها مع رسلهم بعض المعلومات المهمة عن التحركات المغولية، وهذا يتضح من قيام مقدم الإسبتارية نيكولاس لورجن Nicolas Lorgn بإرسال خطاب إلى إدوارد الأول ملك انجلترا يشكره على المعلومات القيمة التي أرسلها عن تحرك المغول صوب بلاد الشام، وقد أُورخت الرسالة في 25 من سبتمبر 1281م(59) وبُعثت من عكا، أي قبيل اندلاع حمص الثانية بـ 35 يوم تقريبًا، مما يعني أن التواصل بين أوربا والمغول لم يتوقف ولم يكن الصليبيون في الشام بمعزل عن ما يحدث في المنطقة، وأن الاتفاق المعقود بينهم وبين قلاوون هو ما أجبرهم على عدم المشاركة في حمص الثانية.

أما في حمص الثالثة فإن الإعداد للمعركة والحشد لها كان ضعيفاً من جانب المماليك، وذلك بسبب الاضطرابات الداخلية التي تعرضت لها مصر في بداية عصر الناصر محمد (1293-1441م) نتيجة عزله لمرتين على التوالي. وقد حدثت المعركة فور عودته لعرشه في المرة الثانية بحيث سبقت مقدمات المعركة وأسبابها عودته إلى عرشه بقليل(60).

وقد أشار المقريزي إلى تنافر المماليك وسيادة سوء الظن فيما بينهم بحيث تحرج موقف الجيش قبيل بداية المعركة، مما يعني أن حشد المماليك في هذه المعركة لم يكن لائقاً بمكانتهم العسكرية وبخاصة أن كل من سلار وبيبرس المتحكمين في السلطنة رفضا الإنفاق على تجهيز الجيش برغم خروج المماليك بقيادة الناصر حينما علم بوجود المغول عند سلمية(61)، وأضيف إلى مشاكلهم سرعة تحرك الناصر بجيوشه حينما علم بتحرك المغول إلى مجمع المروج بحيث قطع ثلاث مراحل في مرحلة واحدة بدون ماء للخيول أو مرعى أو توقف للراحة فنفقت بعض خيول المماليك من تعب الركض والعطش(62).

ويُضيف داوي صور في تسليح المماليك بأنهم قدموا على خيول مُسلحة وعلى رؤوسهم الخوذ الحديدية وحملوا الرماح التي دفعوا بها المغول إلى الخلف وقتلوا الكثير منهم

بأسنتها، وأكد إجمالًا أن المماليك كانوا أحسن تسليحًا وأعظم فروسية من المغول(63)، وأضاف المقريزي أن أمراء المماليك أمروا الجميع بالتخلص من الرماح "...واعتمدوا على ضرب السيف والدبوس"(64)، أما المغول فقد حملوا أقواسهم التي صارت أكثر أهمية من أسلحة المماليك وأمطروهم بوابل من السهام والنشابات بحيث وصفها مفضل بن أبي الفضائل بأنها كانت "...سهامًا كدفعة المطر أو كجرية السيل المنهمر..."(65).

وقد أفاد داوي صور بأن جيش المماليك بلغ 70.000 فارس(66)، بينما قللت المصادر العربية من حجمه إلى 20.000 وهو أمر متوقع في ظل الهزيمة التي حلت بالجيش المملوكي وبالتالي فإن تقليص بعض المؤرخين العرب لحجم جيش المماليك فلتهوين الهزيمة، وضمت تشكيلات جيش المماليك أمراء المماليك والقبائل العربية الشامية(67).

أما المغول فلا ريب أن مجرد قدومهم من بلادهم ومواصلتهم الزحف إلى حمص لا يعني سوى أنهم قد حضروا ومعهم كل ما استطاعوا حشده من رجالهم، وبخاصة أن غازان خان هو من حرك تلك الجيوش وقاد المعركة في سابقة لم تحدث من قبل وهي قيادة إيلخان مغول فارس الجيش بذاته، كما لم يكن غازان وثنياً أو مسيحيًا وإنما كان مسلمًا(68)، ولم يمنعه ذلك من الإصرار على الثأر والانتقام من المماليك، حقًا لم نقف على تفاصيل حشوده ولا حجمها بشكل دقيق ولكنه حقق على الأقل بذلك الجيش ما عجز هولاكو عن تحقيقه.

وقد أشار داوي صور إلى أن غازان لم يكن معه جميع رجاله لأنه لم يتوقع أن تحدث المعركة سوى في اليوم التالي، وقدر جيش غازان بـ100.000 ألف مقاتل دون الإشارة إلى نوعية المقاتلين سواء مشاة أم فرسان، وجيش المماليك بـ 70.000 فارس دون الإشارة إلى المشاة، وضمت تشكيلات جيوشه فرقة من الأرمن بقيادة هيثوم الثاني(1299-305م) Hethom II مكونة من خمسة آلاف من رجاله(69)، وأضاف لهم النويري الكرج وغيرهم(70)، ناهيك عن قبجق الذي اصطحب معه أربعة أمراء غيره وذهب إلي المغول في العام الماضي خوفًا من غدر السلطان، وقد شجع هؤلاء الأمراء مشروع الحملة المغولية ضد

المماليك(71).

الأحداث:

وضع القائد المغولي بيدرا خطة عسكرية لقيادة معركة حمص الأولى تقوم على تكتيك الصدم والخرق بالعمق، حيث رتب جيشه مستفيدًا من قوة اندفاع فرسانه ومن تفوقه العددي، ولما كان تقسيم جيشه هو التقسيم المغولي المعتاد، حيث ينتظم كل ألف مقاتل في فرقة فإنه التزم بذلك وجعل فرق جيشه خلف بعضها البعض كي تُشكل قوة صدم كبرى، بحيث إذا ما اندفعت مرة واحدة تمكنت بفعل حشدها وقوة اندفاعها من اختراق دفاع المماليك، ومن ثم الالتفاف على القلب عقب كسرها لجناحي الميمنة والميسرة.

أما الملك الأشرف الذي قاد جيش المماليك نائبًا عن السلطان بيبرس فقد وضع خطته لمواجهة التفوق العددي لصالح المغول، والتي قامت على الصمود أمام الصدمة الأولى للمغول بأي صورة، فجعل أمير حماة على رأس الميمنة وعسكر حلب في الميسرة، أما هو وعسكره فبقي في القلب، فإذا ما نجح المغول في سحق قلب جيش المماليك بالضربة الأولى فقد يُقدر النجاح لجناحي الميسرة والميمنة في فك الضغط عن قلب جيشهم، أما إن صمد القلب فسوف يساند جناحي الميمنة والميسرة من جهة أخرى.

وألتقى الجمعان عند قبر خالد بن الوليد يوم الجمعة الخامس من العاشر من ديسمبر 1260م وبدا أن قلب الجيش المملوكي كان أقوى، فبعد أن ثبت جيش الأشرف موسى لهجوم المغول الأولي فإنه قاد هجوم مضاد ضدهم قبل معاودتهم الكرة، ونجح في هزيمة المغول وقتل عدد كبير منهم ومن بينهم بعض أمراء المغول ومقدميهم، فانسحب المغول إلى حلب وقتلوا الغرباء الذين احتموا بها، وحينما جهز الظاهر بيبرس جيشاً إلى حلب ليطردهم عنها وعلم المغول – عن طريق الصليبيين – بوصول ذلك الجيش إلى غزة فإن المغول فضلوا الرحيل عن حلب مُسرعين بعد حصار دام أربعة أشهر(72).

أما في معركة حمص الثانية(73) فقد انقسم الجيش المملوكي إلى ثلاثة أقسام: تمركز السلطان قلاوون في القلب وقاد سنقر الأشقر الميسرة المملوكية(74)، وقادعز الدين

أيبك الأفرم الميمنة(75)، وانقسم جيش المغول إلى ثلاثة أقسام أيضاً: ملك أرمينيا مع قواته وألفين من المغول، وبالرغم من أن وصف جوزيف دو كانسي يُشير إلى قيادة ملك أرمينيا للميمنة فإنه عاد ليقول إن منكوتمر هو من قاد الميمنة وأضاف أنه اصطحب معه ألف جورجي(76)، ومجموعة أخرى مع قائد تركي اسمه سنقر التتري(77) بلغ عددها ثلاثة ألاف تركي(78).

ويرى الباحث في وصف دو كانسي خلطاً واضحاً لا يتضح سوى بعرض أحداث المعركة، وهنا يعود دو كانسي ذاته ليُقر بشكل غير مباشر ما قدمته المصادر المملوكية(79)، فاتضح أن منكوتمر تمركز في القلب، بينما قاد الملك الأرمني بصحبة الكرج الميمنة المغولية(80)، وقاد سنقر التتري الميسرة المغولية(81).

وأفاد المقريزي من خلال خطاب وصل إلى قلاوون من حماة – التي يعسكر بها المغول – أن المغول قووا القلب بخمس وأربعين ألفاً، كما قووا الميمنة أيضاً، وأوصى مُرسل الخطاب بتقوية ميسرة المماليك وبالاحتراز على السناجق أي الرايات، وبأن جيش المغول يضم خمسين ألفاً فضلاً عن ثلاثين ألفاً من الروم والكرج والأرمن(82).

حدثت المعركة شمال قبر خالد بن الوليد(83) ومرت بعدة مراحل: انتهت المرحلة الأولى بتغلب ميمنة الجيش المغولي على ميسرة الجيش المملوكي وهروب الأخيرة حتى ضواحي حمص وبحيرتها جنوباً وكانت أبواب حمص مغلقة آنذاك، فتوجهت إلى غزة ودمشق وما ترتب على ذلك من انكشاف جناح قلب ميسرة المماليك ومقتل كثير من سكان المناطق المحيطة وفقدان الخيول وقطعان الحيوانات وحرق الحقول وتخريبها وما إلى ذلك مما أحدثته ميمنة المغول بقيادة الملك ليو(84).

ووقعت المرحلة الثانية بين قلب جيش المغول وبين قلب جيش قلاوون، حينما ألقى منكوتمر بكل قوته على قلب جيش قلاوون وأصابه بالاضطراب(85)، ونتيجة لعدم احتراز المغول الذين احتفلوا بانتصارهم مبكراً وأخذوا يجمعون الغنائم فقد استجمع السلطان قلاوون قواته في القلب مرة أخرى وترتب على ثباته ومساعدة بعض الجنود العائدين من ميمنة جيشه

الفارة إحداث توازن لصالح المماليك(86).

وترتب على جرح منكوتمر(87) فقدانه لوعيه وانقلاب كفة المعركة لصالح قلاوون وقد ضعفت الروح القتالية لدى المغول بعد ظنهم أن قائدهم قد مات. وحملت الميسرة المغولية حملة قوية على ميمنة المماليك ولكن تصدت لها الأخيرة ثم حملت عليها حتى هزمتها وأوصلتها للقلب الذي يقوده منكوتمر، فانكشف جناح الميسرة في قلب الجيش المغولي مما أضعف من موقف منكوتمر(88).

وقد أضاف ابن أيبك الدواداري سبب آخر في هزيمة ميسرة المغول تمثل في قيام الأمير عيسى بن مهنا(89) بنهب أثقال المغول من خلفهم فرجعوا إليهم فركب المسلمون رقابهم وأقفيتهم وشالوهم شيلاً(90)، ناهيك عن ما أضافه دو كانسي من أن ابتعاد الملك ليو في مطاردة ميسرة المماليك أفقد قلب الجيش المغولي مساعدتهم لأنهم ابتعدوا كثيراً في مطاردتهم عن أرض المعركة(91).

بينما وقعت المرحلة الثالثة بين الملك ليو العائد من مرج حمص جنوباً إلى الشمال من مطاردته لميسرة قلاوون، حينما عاد ليُعسكر في أرض المعركة في انتظار منكوتمر(92)، ولم يترك أرض المعركة وينسحب سوى حينما أقنعه سنقر – الذي غرر بميمنة المغول – بالرحيل للحاق بركاب الملك وكي لا يكون خائناً له(93)، وفيما بعد هاجم سنقر الملك ليو في طريق انسحابه وتخطف رجاله، بينما مات بعض رجاله من الإرهاق والإعياء والسير في الصحراء في أماكن مجهولة بالنسبة لهم مما أفقد الملك الكثير من جنوده(94).

أما المرحلة الرابعة فوقعت بين المغول الفارين من المعارك السابقة وبين مُطارديهم من المماليك ممن هربوا إلى سُلمية والبرية أو إلى حلب والفرات، وبالرغم من إشارة دو كانسي إلى سقوط كثير من جنود الملك ليو خلال انسحابه فإنه نسب ذلك إلى خيانة سنقر التتري وإلى نقص المؤن والإعياء وعدم معرفة الطرق(95) ولم ينسبه إلى عملية المطاردة المنهجة التي قادها الأمير بدر الدين بيليك الأيدمري بأمر من السلطان في اليوم التالي(96)، ولم يُشر دو كانسي إلى أوامر قلاوون باعتراض المغول الفارين إلى الفرات بإحراق الأعشاب الجافة المحيطة

بضفاف النهر فمات منهم خلق كثير(97)، وقد أشار المقريزي إلى أنه قُتل في تتبع المغول أكثر ممن قُتل في المعركة ذاتها(98).

وتمثلت المرحلة الخامسة والأخيرة في انسحاب أبغا Abaqa (1265-1282م) (99)خان المغول – من أمام قلعة الرحبة التي كان يحاصرها وصبه جام غضبه على منكوتمر قائلاً له: "لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت"(100). والواقع أن قلاوون قاد هذه المعركة بطريقة تعكس مقدار الخبرة العسكرية التي اكتسبها في الفترة السابقة منذ الحملة الصليبية السابعة خلال أحداث معركة المنصورة، حينما وقف في أثناء المعركة على رأس تل ومعه بعض مماليكه لمتابعة تحركات فرق الجيشين، فإذا رأى أحد جوانب جيشه اختل بعث إليه بأطلاب مكونة من ثلاثِمائِة للمساندة(101).

وفي معركة حمص الثالثة وقف الأمير عيسى بن مهنا في الميمنة على رأس العربان، يليه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب على رأس عسكر حلب وحماة، ووقف على رأس الميسرة أقش قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس والأمير بدر الدين بكتاش في عدة من الأمراء، أما في القلب فقد وقف بيبرس الجاشنكير وسلار(102) وأيبك الخزندار في عدة من الأمراء، ووقف الناصر محمد على بُعد مع حسام الدين لاجين(103) حتى لا يُعرف السلطان فيُقصد، وقد اضطر بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب إصابته بمغص شديد مفاجئ منعه من الثبات على فرسه (104).

وقعت المعركة في مرج المروج الذي يُعرف بوادي الخزندار(105) ومرت بعدة مراحل بدأت المرحلة الأولى حينما أمر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر محمد في الوقت المناسب، فلما انطلقت طليعة جيش الناصر – المعروفون بالزراقون – بالنفط المشتعل تجاه جيش المغول لم يتحرك غازان بعكس ما توقع المسلمون، وظل على ثباته حتى اقتربت طليعة المماليك منه وقد خمدت نيران النفط، فهجم بجيشه حملة واحدة، وانطلقت سهام عشرة آلاف مغولي من رماة النشاب نحو العربان وضغطت ميمنة جيشهم عليهم فولى العربان مُدبرين وخلفهم جيش حلب وحماة فُهزمت

ميمنة الجيش المملوكي وهربت أمام مطاردة الميسرة المغولية(106).

أما المرحلة الثانية فحدث خلالها تمكن ميسرة جيش الناصر من التصدي لميمنة غازان فهزمتها وأجبرتها على الفرار وفقدت ميمنة المغول جراء ذلك نحو خمسة آلاف جندي (107). أما المرحلة الثالثة فكاد غازان أن يُولي الأدبار بيد أن تشجيع قبجق نائب دمشق له ثبته(108)، فنظم صفوفه وحمل على قلب جيش المماليك فلم يصمد سلار وسائر الأمراء البرجية(109)، وحين رأى غازان انسحاب المماليك فإنه أعطى الأوامر بامتطاء الخيول والضغط على المماليك بقوة فانهزم المماليك(110)، وبهذا التكتيك نجح غازان في ربط رجاله بأرض المعركة حتى لا يفروا منها على ما حدث في حمص الأولى والثانية.

هذا والناصر محمد في أثناء ذلك "...مُعتزل ومعه الحسام وهو يبكي ويبتهل ويقول: يا رب لا تجعلني كعبًا نحسًا على المسلمين، ويهم أن يفر مع القوم فيمنعه الحسام ويقول: ما هي كسرة، لكن المسلمين قد تأخروا ولم يبق معه من المماليك غير اثني عشر مملوكاً"(111)، وهذا مما قد يؤخذ على محمل الدبلوماسية لا الحقيقة لأن المعركة أسفرت عن هزيمة المماليك في النهاية.

وعاد مقاتلو ميسرة الجيش المملوكي الذين هزموا ميمنة غازان إلى حمص بالغنائم بعد العصر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجية الذين يُمثلون قلب الجيش يُولون منهزمين وفي أعقابهم المغول يتبعونهم فبُهتوا، بيد أن غازان أمر مقاتليه بالتوقف عن المطاردة خشية أن يكون كميناً على عادة المماليك(112)، ولم يتيقن المغول من معرفة أن المعركة حُسمت لصالحهم سوى مع انبلاج فجر اليوم الثاني فواصلوا مطاردتهم للمماليك الذي فقدوا أسلحتهم وعتادهم(113).

وتمثلت المرحلة الرابعة في دخول المغول دمشق وما صاحب ذلك من أحداث الهرب والاحتشاد الذي مات نتيجة له عدد كبير من العامة في دمشق، ثم اجتمع من بقي في المدينة بالجامع الأموي واتفقوا على إرسال عدة من شيوخ دمشق وقُضاتها إلى غازان لطلب الأمان، فوافقهم الأخير على ذلك وصرفهم فعادوا إلى دمشق، وبعد يومين دخل غازان دمشق ومعه

نائبها قبجق(114).

ويتضح من مقارنة أحداث المعارك الثلاث حدوث تفاوت كبير في كيفية إدارة كل جيش لتشكيلاته القتالية، وقد نجح المماليك في تخطي أسطورة الرعب المغولي التي توقفت مع انتصارهم في عين جالوت، ولا ريب في أن خوضهم حمص الأولى بأسلوب المغول في التصدي لضربتهم الأولى القادمة من العمق لمنع تطويق جناحي جيشهم للمماليك قد مكنهم من الانتصار عليهم وإجلائهم عن حلب وشمال بلاد الشام. وتطور أداء المماليك في حمص الثانية تحت قيادة المنصور قلاوون الذي أبدى قوة وصلابة في جمع جيشه بعد تفرقه بحيث كادت الهزيمة أن تلحق به، وأصبح لصمود قلاوون في القلب بعد صمود ميمنة جيشه في التصدي لميسرة المغول دور في الانتصار الذي حققه.

أما في معركة حمص الثالثة فقد حدث عكس ما تم في معركة حمص الثانية، لأن غازان توقع من دراسته لحمص الثانية أن المماليك سوف يقومون بتقوية القلب وبالتالي فإنه انتظر ريثما اقتربت منه طليعة الجيش المملوكي وافقدها الدعم الذي كان من الممكن تقديمه للقلب باختراق المغول وتفريقهم، وهذا يعني تطوير غازان لطريقة هجوم المغول حينما أمر رجاله باستخدام دروعهم كحاجز لمنع المماليك من التوغل فيما بينهم، وفي الوقت المناسب أمطر المماليك بوابل من السهام التي فرقت جموع المماليك(115). كما خيب غازان توقع المماليك بتقوية ميسرته بدلًا من الميمنة ولأجل ذلك انتصرت الميمنة وانهزمت الميسرة وهو عكس ما حدث في حمص الثانية في جناحي الجيشين.

النتائج:

كانت نتيجة معركة حمص الأولى لصالح المماليك وخسر المغول كثيرًا من جنودهم، ولم يُقتل من المماليك الكثير وهرب مقدم المغول في أسوأ حال نتيجة لتلك الهزيمة(116). وترتب على حمص الأولى عدة نتائج على المستويين الداخلي والخارجي، فمن جهة تمكن بيبرس من توطيد حكمه بالقضاء على الأمراء الخارجين عن طاعته وبخاصة شمس الدين البرلي في الشهور التالية للمعركة مباشرة(117)، وكذلك جرى الاتفاق على إبقاء الأشرف موسى

أميراً على حمص حتى وفاته عام 1263 م ثم أُضيفت إلى أملاك السلطنة(118).

وعلى المستوى الخارجي فقد أنهت تلك المعركة أولى حملات إيلخانات المغول على الشام بعد هزيمتهم في عين جالوت، وإن كانت هناك حملات أتت بعدها ولكن لم تدم أي منها بالشام أكثر من سنة، علاوة على القوة التي خرج بها السلطان بيبرس من المعركة بحيث كان لها أثر واضح في الضغط الذي مارسه على الصليبيين في عكا ويافا وبيروت لطلب الصلح بالشروط التي ارتضاها الظاهر بيبرس نفسه(119)، ناهيك عن التحسن النوعي بين بيبرس وبركة خان مغول القفجاق بوصول مجموعة من مغول القفجاق مستأمنين لخدمة السلطان فأمر نوابه في الشام بحسن استقبالهم وعدم التعرض لهم(120).

وترتب على معركة حمص الثانية نتائج قريبة المدى وأخرى بعيدة، فالمعركة تُعد انتصار آخر للمماليك على جيش مغولي كبير يُعد الأقوى من نوعه بعد الجيش الذي دفعوا به في معركة عين جالوت، وأياً كان عدد الجيش الذي زاد ونقص من مؤرخ لآخر من مؤرخي الطرفين فلا ريب في كونه الأضخم من نوعه والأكثر عدة وعتادًا منذ ما يزيد على عشرين سنة تقريبًا. وقد خسر المغول الكثير من مقاتليهم سواء بالأسر أم بالقتل(121)، وربما كان ذلك أحد عوامل نقمة أبغا على أخيه منكوتمر نتيجة لتلك الهزيمة، وهي خسارة جعلت موقف المغول أكثر حذراً في الفترة المقبلة تجاه المماليك حتى معركة حمص الثالثة(122).

وخرج قلاوون من تلك المعركة أكثر قوة بحيث تمكن خلال الأعوام التالية للمعركة مباشرة من مهاجمة بعض الحصون التي استولى عليها المغول وامتلكها ومنها قطيا وثغر الكتخا عام 1283م، كما هاجم بلاد سيس نتيجة لقيام الأرمن خلال أحداث حمص الثانية بحرق جامع حلب فهاجم بلادهم وهزم جيشهم وعاد المماليك بالنصر والغنيمة عام 1283م.

وعلى المدى البعيد فإن الصليبيين لم يفيدوا من هذه المعركة، بل على العكس كانت وبالاً عليهم حينما خرج منها قلاوون أقوى وهاجم حصن المرقب أحد أملاك الصليبيين نتيجة إخلال أميره بالاتفاق الذي عقده مع المماليك مما استوجب مهاجمته وأجبرهم قلاوون

على تسليم الحصن ورحلهم إلى طرابلس عام 1285م(123)، وبعد قليل هاجم قلاوون طرابلس واستردها سنة 1289م، وبذلك لم يعد للصليبيين سوى عكا – وعدد قليل من المدن الساحلية الصغيرة أهمها بيروت – التي استردها ابنه الأشرف خليل بعد وفاة قلاوون بحوالي ثلاث سنوات أي عام 1291م ليُكتب للكيان الصليبي في بلاد الشام ذهاب بلا عودة(124).

وفيما يخص معركة حمص الثالثة فقد ترتب عليها نتائج مهمة ممثلة في هزيمة الجيش المملوكي على يد المغول لأول مرة منذ انتصار المماليك على المغول في عين جالوت، ولعل مما ترتب على تلك المعركة بصورة مباشرة تلك الخسائر في الأموال والأرواح بحيث قُتل عدد ليس بالهين من الأمراء والمماليك قدرهم المقريزي بألف وعلى رأسهم الأمير أيدمر الحلبي والأمير يلبان التقوي والأمير أزبك نائب بلاطنس وقاضي قضاة دمشق وغيرهم كثير(125)، وإن كان قد قلل اليافعي من عدد قتلى المماليك، بينما اتفق جميعهم على المبالغة في عدد قتلى المغول، بحيث قدرهم النويري – ووافقه المقريزي – بأربعة عشر ألف مغولي بينما قدرهم كل من ابن أيبك واليافعي بعشرة آلاف قتيل(127)، وبالرغم من إشارة داوي صور إلى إحداث المماليك أضرار بالغة بفرسان المغول بحيث قتلوا منهم الكثير فإن الباحث يرى في الأرقام التي قدمتها المصادر المملوكية عن قتلى المغول مبالغة يصعُب قبولها في ظل الهزيمة التي لحقت بالمماليك.

فضلاً عن خسارة أغلب مدن بلاد الشام لصالح المغول لفترة قليلة بداية من حلب إلى حمص وحماة وصولاً إلى دمشق، وقد رفضت أغلب قلاع المدن الشامية التسليم لغازان بسبب فشله في الاستيلاء على قلعة دمشق(128)، ولكن لم تدم سيطرة المغول لأكثر من ثلاث سنوات.

ولعل مما تسبب في تلك الهزيمة التكتيك الذي قاد به غازان جيشه بحيث تسبب في إحداث خلل في الجيش المملوكي، فإن أضفنا لها مشاكل الجيش المملوكي الأخرى كمشكلات القيادة وقلة خبرة الناصر محمد سياسياً وعسكريًا وتحالف قبجق مع المغول

ضده، إضافة إلى الخلاف الكبير الذي حدث بين مماليك السلطان وبعض الأمراء الآخرين في أثناء الاستعداد للمعركة وعدم الإنفاق على الجيش(129)، الأمر الذي ترتب عليه فقدان الجنود لتركيزهم، خصوصاً حينما ساءت الظنون وكاد بعض الأمراء أن يغادروا السلطان إلى الكرك قبل بداية المعركة.

ناهيك عن حدوث سيل كبير أتلف كثيراً من أثقال العسكر وافتقر عدة منهم لذهاب أموالهم وأثقالهم فتخوفوا أن "...يكون منذراً بقدوم العدو وكسرة العسكر، وتحدث بذلك كل أحد حتى السوقة..."، وغلت الأسعار وكثر الإرجاف بكثرة المغول ورحيل أهالي القرى والمدن خوفاً من بطشهم (130). وأكد ابن أيبك أن المماليك لم يكترثوا لهذه المعركة "...ولم يكن عند المسلمين في تلك النوبة اكتراث بالتتار، ولا كأنهم عندهم عدو، بل مُشمرين الذيول كانحدار السيول لملتقى العدو المخذول..."، إضافة إلى ما أُشيع بشأن انسحاب المغول بسبب علمهم بقوة الجيش المملوكي وفُسر ذلك التصرف بأنه خديعة للمسلمين للإيقاع بهم وهو ما حدث بالفعل لأن الخديعة انطلت على بعضهم(131).

وكان داوي صور محقاً في قوله: "...لقد مضت سنين كثيرة منذ أن هُزم الجيش المصري، فقد ألفوا – أي المماليك – الانتصار على أعدائهم وهو ما أصابهم بكثير من الغرور حتى اعتقدوا أنهم يمكنهم هزيمة أي قوة في العالم...(132).

ومن عقد مقارنة بين نتائج تلك المعارك يتضح أنه علي الرغم من إنسحاب المغول من بلاد الشام في المعركتين الأولى والثانية، وبرغم الانتصار الذي حققه المماليك فيهما فإن نتائج هزيمة المماليك في حمص الثالثة كانت أكثر قوة من الانتصارين السابقين، ويكاد الدودار يؤكد أن الهزيمة التي مني بها الناصر في حمص الثالثة هي التي جعلته ينتصر في معركته الأخيرة والأكبر مع المغول(133)، حينما قرر نسيان الهزيمة وقاد جيوشه لمواجهة المغول في معركة مرج الصفر التي ترتب عليها إنهاء خطر المغول بعد اعتناقهم للإسلام في أعقاب تلك المعركة، وصار للناصر محمد دور في إحداث مصالحة بين مغول فارس ومغول القبيلة الذهبية وتحسنت العلاقات فيما بعد بين مغول فارس وبين المماليك(134).

وبذلك يصح استنتاج آخر مهم مُمثل في خروج السلاطين الثلاثة الذين جرت المعارك الثلاث في عهودهم أكثر قوة من ذي قبل برغم هزيمة الناصر في حمص الثالثة، وبخاصة أن التوقيت الذي هاجم فيه المغول في المرات الثلاث ونتج عنه ثلاث معارك قُصد به مهاجمة المماليك وسلاطينهم في مواقف ضعف على ما أشرت في أهمية الدراسة وجدواها، بينما جاءت النتيجة بخلاف ما توقع المغول وباتت نتائج تلك المعارك أحد أهم وسائل قوة السلاطين الثلاثة تاليًا ومن أهم عوامل تمكينهم لعصور حكم طويلة ومستقرة.

وعلى صعيد التخطيط العسكري فقد أفاد المغول من رصيد المعرفة التي اكتسبوها من اللقاءات العسكرية التي خاضوها ضد المماليك في التخطيط لحمص الثالثة، حينما تخلوا عن مهاجمة المماليك أولاً على غير عادتهم، وهذا يعني أن امتناع المغول عن مهاجمة المماليك هذه المرة فلأنهم أفادوا مما حدث في المعركتين السابقتين، ففي حمص الأولى – ومثلما حدث في عين جالوت وأبلستين — استخدم المغول الأسلوب التقليدي في الصدم والاختراق بالعمق ففهم المماليك ذلك وتغلبوا عليه بالتصدي لهم – على ما حدث في عين جالوت – مما عطل من قوة جناحي جيش المغول وفاعليتهما وأفقدتهما القدرة على تطويق المماليك، ثم ما حدث في حمص الثانية بالشروع في تحرك الميمنة ضد المماليك بكل قوة وانحرافها داخل الأراضي الإسلامية حتى وصلت مشارف دمشق، الأمر الذي قلل من قيمة الانتصار الذي أحرزته ميمنة المغول بسبب عدم عودتها مباشرة لمؤازرة قلب الجيش والميسرة مما عرضهما للهزيمة ومن ثم هزيمة جميع المغول(135).

وعلى ما يبدو أن امتلاك المماليك لبعض عناصر القوة والسيادة الإستراتيجية لمواقع المعارك الثلاث بوصفها واقعة في ظهير قوة المماليك وعمق دفاعاتهم – وبالتالي افتقاد المغول لتلك الصفة – وما ترتب عليها من توافر المؤن والإمدادات ومعرفة ظروف البلاد الجغرافية وطبيعتها ومسالكها ودروبها التي لم تبعد كثيراً عن أرض المعارك التي وقعت شرق وشمال شرق حمص، ناهيك عن سهولة انسحاب المماليك وقت الهزيمة على ما حدث في حمص الثالثة عقب خسارتهم للمعركة إلى دمشق القريبة، وسهولة استبدال الجند أو

استدعائهم من دمشق أيضًا وما إلى ذلك من نتائج ترتبت على تصدي المماليك لعدوهم وهم داخل حدودهم.

بينما بدت إشكالية التموين تلك وطرق الانسحاب جلية في موقف المغول في المعركتين الأولى والثانية، حيث تعقبهم المماليك وأجلوهم عن حلب وتعقبوهم إلى الفرات في حمص الأولى، كما كبدوهم خسائر فادحة، وأفقدوهم الكثير من أموالهم وجنودهم ما بين قتل وأسر خلال فرارهم والمماليك يتتبعونهم عقب هزيمتهم في حمص الثانية. ولعل مما يمكن سياقه في هذا المضمار أن أحد أقوى عوامل نشوب تلك المعارك وهو التحرك المغولي ضد المماليك قد تحول إلى أحد أقوى عوامل انتصار المماليك على المغول.

وعانى سكان بلاد الشام الكثير من الويلات نتيجة ما حدث في بلدانهم ومدنهم نتيجة لتغير السيادة بين المغول والمماليك على بلدانهم، وقتل منهم كثير بلا ذنب بسبب انتقام المغول في بعض الأحيان على ما حدث في حمص الأولى، ناهيك عن معاناتهم من غلاء الأسعار بصورة جنونية تعدت كافة الاحتمالات حينما كان المغول يُحاصرون بعض المدن على ما فعلوا في حلب عقب هزيمتهم في حمص الأولى، فغلت الأسعار وعدم القوت وشح بين العامة(136)، وقد تكرر سيناريو القتل والغلاء فيما بعد بحيث صاحب كل دخول مغولي إلى بلاد الشام سواء في حمص الثانية أم الثالثة أم في غيرها من اللقاءات الحربية بين طرفي الصراع(137).

مملكة أرمينية الصغرى
الفرات
حلب
أنطاكيا
مملكة قبرص
فاماغوستا
جزيرة أرواد
حماة
حمص
موضع حدوث المعارك الثلاث
طرابلس
جبيل
بعلبك
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
صيدا
صور
عكا
يافا
القدس
عسقلان
الخليل
غزة
كيلومتر
ميل
١٠٠

الهوامش

1- الملك الأشرف موسى مظفر الدين بن الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه، بن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي. انظر: النويري (أحمد بن عبد الوهاب النويري ت:733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفى فوار وحكمت فوار، جـ29، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2004م، ص265.2

2- هو منكوتمر بن هولاكو أخو أبغا بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان وتوفي سنة 681هـ/1282م. انظر: ابن أيبك (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري): كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: أ. هارمان، جـ8، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، 1971م، ص248؛ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت: 874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ7، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1938م، ص301؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص18-19.

3- هو ابغا بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان وتوفي عام 680هـ/1281م. انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ4، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، ص16؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ7، ص294. وأيضًا:

Fiey, (J.M,), Chretiens syriaques sous les Mongols: Il-Khanat de Perse, XIIIe - XIVe s, Louvain: Secrét. du CorpusSCO, 1975, pp. 33-40; Bertold, Geschichte der Mongolen: nach östlichen und europäischen Zeugnissen des 13. und 14, Jahrhunderts, 1968, pp.152-153, 192-194.

4- محمود غازان خان: ابن أرغون خان، وهو من سلالة ملكية تنتهي إلى جنكيز خان وهو من أبرز إيلخانات فارس وأقواهم، وقد اعتنق الإسلام قبل توليه الحكم سنة 694هـ/1295م، مما عُد نقطة تحول بالنسبة لديانة المغول في آسيا الوسطى، ويُعد عهد غازان بمثابة الفترة التي تحول فيها المغول من حياة البدو إلى الاستقرار. انظر عنه:

Fiey, Chretiens syriaques sous les Mongols, pp. 39-40.

5- جرت العادة أن يتخذ أولئك الأمراء المعارضون من حادثة خلع ابن السلطان ذريعة للمعارضة والاحتجاج والدفاع عن مبدأ الوراثة وواجبات الولاء والعهود، ولكنها في الواقع لم تخرج عن مجرد الرغبة في استغلال الظروف لمصالحهم الشخصية، فلو أن واحداً من هؤلاء الأمراء المعارضين تمكن من خلع قلاوون والوصول إلى السلطنة لما احترم مبدأ الوراثة الشرعية، لأن المعارضة هنا مسألة شكلية لتغطية ما بأنفسهم من طموح نحو العرش.

ويتصدر هؤلاء سنجر الحلبي الذي كان نائباً لقطز في دمشق وقد سعى فور إعلان بيبرس من نفسه سلطاناً إلى معارضته وتلقب بالملك المجاهد واستدعى أعيان دمشق واستحلفهم وباقي نواب الشام فمنهم من حلف له ومنهم من امتنع، ومناهم بالأموال والاقطاعات كي ينصاعوا له 658هـ.

وكان المقريزي صريحًا حينما جعل اتصال سنقر الأشقر – الذي عارض قلاوون وتمرد على سلطنته وتغلب على شيزر وصهيون وبلاطنس وأعمالهم عام 678هـ/1279م اعتراضًا على سلطنة قلاوون وتذرعاً بحقوق وراثة أبناء بيبرس في العرش – بالمغول أحد أهم العوامل المباشرة في نشوب معركة حمص الثانية على ما يفيد الخطاب الذي عُثر عليه مع حامل رسائل منكوتمر الذي وقع في أسره يحرضه على غزو الشام ويمنيه بالمساعدة. وقد وقع في يد طرنطاي النائب جماعة من المغول كأسرى منهم حرمدان (أي حامل رسائل) منكوتمر، فوجد بها رسائل من سنقر الأشقر وأيتمش السعدي وغيرهم من موالي سنقر يحرضون منكوتمر على مهاجمة الشام ويعدونه بالمساعدة على دخولها.

وقبيل اندلاع حمص الثالثة لجأ كل من قبجق المنصوري نائب دمشق وبكتمر السلاح دار في أواخر أيام السلطان لاجين – على أثر خلافهم معه بسبب سعيه إلى تنصيب الناصر سلطاناً للمرة الثانية – إلى الاتصال بالخان غازان محمود وشرحوا له سوء أحوال مصر والشام وحرضوه على غزوهما، فراق لغازان أن يحقق المشروع الذي فشل أجداده في تحقيقه بالقضاء على المماليك والاستيلاء على مصر والشام. وقد استهل غازان مشروعه

بعبور نهر الفرات في طريقه إلى الشام، فخرج الناصر محمد لملاقاته وكان قد عاد إلى مُلكه في ولايته الثانية بعد مقتل لاجين: انظر: ابن أيبك: كز الدرر، جـ8، ص63-64، 240؛ النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص24-25؛ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت: 1442م/845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، جـ1، ق3، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ص866-930. وأيضًا: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والحربي)، دار عين، القاهرة، 1998م، ص131-139.

6- عُزل الناصر محمد مرتين بواسطة هؤلاء الأمراء الطامعين، الأولى (1293-1294م) على يد لاجين المنصوري الذي عزله ونفاه بعد عام واحد من حكمه، وقُدر لـ "لاجين" البقاء سلطاناً أربع سنوات(1294-1298م)، ولكنه لم يستطع إرضاء الجميع وأثار حقد الأمراء فقتلوه واستدعوا الناصر محمد من منفاه. أما سلطنة الناصر الثانية فاستمرت عشر سنوات (1298-1308م) ازداد فيها نفوذ الأمراء وعجز الناصر عن السيطرة على الموقف لصغر سنه، فوقف حائراً أمام المنافسة التي اشتدت بين الأمير بيبرس الجاشنكير والأمير سلار، ولقي منهما الإساءة والتضييق المالي، فاضُطر الناصر إلى التخلي عن السلطنة ومغادرة مصر إلى حصن الكرك.

وقد انتهز بيبرس الفرصة واغتصب العرش مُلقباً نفسه بالسلطان المظفر ركن الدين بيبرس، أما الأمير سلار فإنه اكتفى بنيابة السلطنة، واستمر الحال على هذا الوضع سنة واحدة ثار بعدها العامة والأمراء ضدهما، ونتج عن ذلك عودة الناصر محمد إلى عرشه في احتفال شعبي كبير سنة 1309م، وهنا لم يتردد الناصر في الانتقام من كل من بيبرس وسلار، فمات الأول جوعاً حتى أنه أكل أصابعه أما الثاني فإنه أُعدم شنقاً. وتُعدُ سلطنة الناصر الثالثة (1309-1341م) سلطنته الحقيقية التي دامت حتى وفاته، ونظراً إلى كبر مدة الفترات الثلاث التي حكمها الناصر محمد فقد عُد عهده واحداً من أطول عهود سلاطين المماليك (حوالي 43 سنة).

عن أحداث هذه الفترة وتداخلاتها انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص208-240؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص793-872؛ الشجاعي: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي واولاده، فرايبورج (Freiburg)، ألمانيا، 1971م، ص3-102.

7- لم يستسلم المماليك إلى هزيمتهم في معركة حمص الثالثة وإنما تكتلوا ثانية وخرجت جموعهم إلى الشام لأخذ الثأر من المغول، وحينما علم غازان باقتراب جيوشهم من دمشق فإنه انسحب منها تاركاً المدينة في حماية من انضم إليه من أمراء المماليك، وقد ظن أنه يستطيع بهذه الوسيلة أن يشطر المماليك إلى حزبين متصارعين يضرب كل منهما الأخر، ولكن خاب ظنه بانضمام المماليك – الذين سبق أن أعلنوا له الولاء – إلى جيش المماليك القادم إلى الشام، وهكذا انتهت سيطرة المغول على بلاد الشام.

وحينما فشلت مساعي غازان لعقد الصلح مع المماليك كي يتصدى لمشاكله الداخلية فإنه قرر إرسال جيوشه إلى الشام بقيادة قائده قطلوشاه عام 702هـ/1303م فخرج الناصر محمد بجيوشه لملاقاته، وتقابل الفريقان عند مرج الصفر إلى الجنوب من دمشق، وكان النصر النهائي للمماليك، وارتدت فلول المغول إلى الفرات بعد أن فقدت ما يقرب من عشرة آلاف جندي بين قتيل وأسير. ويُعد هذا الانتصار الحلقة الأخيرة في سلسلة الوقائع الكبرى التي دارت بين الدولتين المملوكية والمغولية وزال خطر المغول بعد موقعة مرج الصفر عن مصر والشام حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي عندما عاودوا الظهور من جديد على يد القائد المغولي تيمورلنك. انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص930-938؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص20-55.

8- The Templar of Tyre, Part III of the Deeds of Cypriots, Trans. by, Paul Crawford, (England, 2003), p.593.

9- مدينة حمص: طولها إحدى وستون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهي مدينة جليلة وقاعدة من قواعد الشام العظيمة، وهي في وطأة من الأرض ممتدة إلى نهر العاصي ومنه يشرب أهلها، حيث يُرفع الماء إلى دار النيابة بها وبعض مواضع بها.

وقد أخذت تضاريس حمص ثلاثة اتجاهات متمايزة كنتيجة طبيعية لعوامل تكوين التضاريس الباطنية والخارجية: التضاريس البركانية والسهلية المتموجة في سهول حمص وما غربها، والتضاريس الإلتوائية في منطقة جبال وسط حمص وما بينها وتعادل 45% من مساحة حمص وتضم مجموعة من الجبال مثل جبال: الشومرية والأبيض والضليل والمنشار وغيرها، ثم التضاريس الصحراوية في منطقة الفيضات والحماد وتعادل 46% من مساحة حمص وتقع في جنوبي وشرقي الجبال التدمرية. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، 1979م.، جـ1، ص.281،207

10- لعبت مدينة حمص دوراً مهماً على عصر الحروب الصليبية بفضل سيطرتها على منفذ حمص الذي ربط المنطقة الساحلية بالبحر المتوسط بالجوف السوري عن طريق وادي نهر العاصي، وفصل بين سلسلة جبال النصيرية شمالاً وسلسلة جبال لبنان جنوباً من خلال امتداده من الشرق إلى الغرب، وهما السلسلتان الملازمتان لساحل البحر المتوسط، وبذلك المنفذ تحكمت حمص في حركة المرور بين داخل البلاد وبين المنطقة الساحلية. تُعد حمص واحدة من أربع مدن مشهورة في بلاد الشام منذ القدم، حيث تحتل الترتيب الثالث بعد دمشق وحلب، كما تتوسط حمص موقعيهما، وهى بلدة كبيرة ذات قلعة حصينة، تمتد بساتينها إلى نهر العاصي. انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة: حسن حبشي، جـ2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص43، 44. وأيضاً: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1966م، ص.136

11- الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، جـ1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص21، 264؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، ص.281،207

12- تقع سلمية بعيداً عن الطريق وعن نهر العاصي على طرف البادية إلى الجنوب الغربي من حماة، وهى عبارة عن حصن صغير بينها وبين حمص مرحلة والمرحلة تساوي 24 ميلاً، أما الميل فإنه يساوي 1.6 كيلو متراً تقريباً، واحتلت بفضل موقعها مركزاً متقدماً على حافة

الصحراء، وصارت ملتقى للطرق المتجهة إلى حلب ناحية الشمال وإلى الرصافة في الشمال الشرقي، وإلى حماة وحمص في الغرب وإلى تدمر في الشرق، وقد تلاشت تلك المكانة تدريجياً منذ تدميرها على يد القرامطة عام 290هـ. انظر: محمد مرسي الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الإسكندرية، 1980م، ص48، 49. وعن غزو القرامطة للمنطقة انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مكتبة المتنبي، القاهرة، (د.ت)، جـ2، ص.60

13- المرحلة تساوي 24 ميلاً، أما الميل فإنه يساوي 1.6 كيلو متراً تقريباً.

14- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص68-69.

15- اليافعي (أسعد بن علي بن سليمان ت:768هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل منصور، جـ4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ص.144

16- الرستن مدينة شامية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص على بعد 20 كيلو متر وإلى الجنوب من مدينتي مدينة حماة على بعد 21 كم.

17- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص.23

18- وادي الخزندار هو اسم موضع المعركة كما ذكره المقريزي والدودار وابن أيبك، وقد أشار القلقشندي أن "الخزندار" هو الرسم الصحيح للكلمة، وقد اشار بن تغري بردي إلى أن وادي الخزندار يقع قريبا من سليمة حيث وقتعت المعركة بقربها. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشا، جـ5، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1945م، ص435. وأيضًا: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص692؛ الدودار(الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدودار): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد.س. ريتشاردز، بيروت، 1998م، ص331؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص68-69؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ8، ص.98

19- Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, , II, 1912, p. 471.

وكذلك: الدودار: زبدة الفكرة، ص.331

20- وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ2، ص43- 44. وأيضاً: السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام، ص.136

21- لم يتوقف المغول عن مهاجمة بلاد الشام منذ ما قبل عين جالوت ولم يتوقف المماليك عن الخروج لصدهم عنها، ففي أعقاب معركة حين جالوت وتوابعها استغل بيدرا فرصة مقتل السلطان قطز، وثورة سنجر الحلبي والي دمشق على مقتله ضد بيبرس البندقداري لظنهم بقوع خلاف كبير بين الأمراء المعزية وهم لا يعلمون – على ما يبدو – بالصلح الذي عقد بين بيبرس وسنجر الحلبي، فجمع بيدرا جيشه من المغول الباقين في الجزيرة ومن نجا من عين جالوت، وشكل جيشا قوامه ستة آلاف فارس، وهاجم حلب فهرب الأمير حسام الدين الجوكندار المقدم بمن معه من العسكر إلى جهة دمشق، وحينما رأى المغول هروبه فإنهم دخلوا حلب وملكوها وأخرجوا من فيها من المماليك ووضعوا السيف في رقاب بعضهم وأطلقوا الباقين فدخلوا حلب.

ووصل الأمير حسام الدين الجوكندار مع عسكره إلى حماة وبها صاحبها الملك المنصور، ثم تقدم المغول إلى جهة حماة فلما قربوا منها رحل الجوكندار والملك المنصور بعسكريهما إلى حمص ووصل المغول إلى حماة وهاجموها فأُغلقت أبوابها، فطلب منهم المغول فتح الأبواب مقابل تأمينهم فلم يجيبوهم، ولم يكن مع المغول خسروشاه ولم يكن أهل حماة يثقون سوى فيه ثم أخرجوا للمغول بعض الطعام فاندفع المغول عن حماة للقاء المماليك وارتعب الناس بين أيديهم وخاف أهل دمشق واستعد الطرفان لخوض حمص الأولى.

وقد كثرت هذه اللقاءات بعد حمص الأولى، بحيث كانت مهاجمة المغول لبلاد الشام في العام السابق على معركة حمص الثانية سبباً في خروج قلاوون إلى لقائهم، ودخل المغول إلى حلب وأقاموا بها بضعة أيام ثم انسحبوا إلى مشاتيهم في الوقت الذي أعلن فيه قلاوون التحرك

لمواجهة المغول ووصل إلى الشام، ولكنه عاد حينما وقف على خبر عودة المغول إلى بلادهم. وكذا كان الحال عشية معركة حمص الثالثة حينما تأهب غازان للعبور إلى بلاد الشام وأرسل بعض فرق جيشه إلى بلاد الروم على وصف المقريزي، ناهيك عن تزامن تحركات غازان مع وصول أسطول كبير في البحر المتوسط قبالة بيروت نسبه المقريزي إلى الفرنجة ولم يقدر له الوصول إلى اليابسة لأن الرياح دمرته قبالة سواحل بيروت وأسر المسلمون من جنوده الكثير، ويرى المقريزي أن خروج الأمير سلامش عن طاعة غازان في بلاد الروم ونهبه لجنوده في بلاد الشام من أكثر الأسباب التي حركت غازان لتأديبه ومهاجمة بلاد الشام ووقوع أحداث معركة حمص الثالثة. عن تفاصيل مقدمات معارك حمص الثلاث انظر:

النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص21-22؛ جـ31، ص20-21، ص24-241؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص66-67؛ جـ9، ص13-14؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص874-875، 877-878. وأيضًا:

The Templar of Tyre, III, pp.591-593.

وأيضًا: السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية، 1986م، ص264-266؛ منذر الحايك: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 1996م، جـ2، ص96.

22- لاقى المنصور قلاوون معارضة من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطان في دمشق الذي أعلن نفسه سلطاناً على بلاد الشام بمجرد سماعه بسلطنة قلاوون وعزل سلامش بن بيبرس، وانضم إليه عدد كبير من المماليك الظاهرية، كما أقام إلى جانبه سليل أيوبي وهو صاحب حماة، وكذلك شيوخ القبائل العربية المقيمة على حدود بلاد الشام والعراق سنة 1280م.

كان سنقر الأشقر نداً للمنصور قلاوون وواحداً من رجال بيبرس شأنه شأن قلاوون في ظل سلطنة بيبرس، وقد وضح هذا الأمر أيما وضوح عقب وفاة بيبرس ومبايعة الأمراء لولديه على التوالي، حيث كان قلاوون مثل سنقر في التوجهات والقوة والميول والمواقف. وعقب إعلان

قلاوون نفسه سلطاناً على الديار المصرية وإعلامه سنقر بما انتهى إليه حاله من السلطنة فإن الأخير استقل بدمشق على الفور وتلقب بالملك الكامل، وظل مستقلاً بأغلب بلاد الشام لمدة عام تقريباً (678-679هـ). انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص8-9، 10-11، 13-16؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص144؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص230-235، 240.

23- أكد بعض المؤرخين ما مفاده أن من عوامل انتصار قلاوون في تلك المعركة نجاحه في جذب سنقر الأشقر إليه قبل بداية المعركة بقليل، وقد فرح المسلمون بذلك نتيجة للم الشمل ولأن سنقر كان له من قوة الشخصية ما من شأنه أن يُرجح كفة المماليك. انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص690؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1993م، ص72.

24- لم يخرج الأمير سيف الدين قبجق – أو قبجاق – وحده عن سلطة الناصر محمد وإنما انضم معه بعض الأمراء الآخرين ومنهم: الأمير سيف الدين بكتمر السلاح والأمير فارس الدين البكي، والأمير سيف الدين عزاز. عن قبجق وعلاقته بالمغول وبالناصر محمد بن قلاوون انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص331؛ النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص241؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص886-888؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص375-376.

25- ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص13-18؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص888-889.

26- المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص900-901.

27- يقول داوي صور The Templar of Tyre عن ذلك: "...وحدث أن قبجق ومن في صحبته قد بقوا في دمشق مع "مولاي"، لأنهم كانوا في شدة الخوف من السلطان بسبب ما اقترفوه من فعال السوء، كما شرحت لك، وراسلوا أصدقائهم في مصر قائلين إنه

يجب أن يُؤثروا علي السلطان ليتصالحوا معه، وعند ذلك قبل السلطان عذرهم وأرسل إليهم عهد الأمان، ثم غادر قبجق وباقي الأمراء دون أن يكتشف "مولاي" ما عزموا عليه وساروا إلي مصر...". انظر:

The Templar of Tyre, III, p.611.

28- كان سنجر الحلبي نائباً لقطز في دمشق وقد سعى فور إعلان بيبرس من نفسه سلطاناً إلى معارضته وتلقب بالملك المجاهد واستدعى أعيان دمشق واستحلفهم وباقي نواب الشام، فمنهم من حلف له ومنهم من امتنع، ولكنه اصطلح في النهاية مع السلطان بيبرس. انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص 59-60؛ النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص20-21؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص63-64.

29- تعرض بيبرس خلال عام 659هـ لأكثر من حركة معارضة منها مؤامرة دبرت لاغتياله بين الأمراء المعزية، فقبض على جميع المتآمرين ومن بينهم الأمير بهاء الدين بغدي الأشرفي وحمله إلى القلعة وظل بمحبسه حتى مات. وكان من نتيجة ذلك خوف الأمير شمس الدين البرلي على نفسه ففر من دمشق لأنه ظن أن يحدث معه ما حدث مع الأمير بهاء بغدي، فتوجه إلى حلب وتملكها وانفرد بها وصادر الأمراء والعامة وما إلى ذلك.

وقد لوحظ حرص بيبرس بعد هذه الأحداث مباشرة على إحياء الخلافة العباسية في القاهرة باستقدام الأمير المستنصر العباسي ومبايعته بالخلافة وتقليده لبيبرس بالبلاد المصرية والشامية والفراتية والجزرية والحجازية. وعلى ما يبدو أن ثمة علاقة بين ما حدث في القاهرة وما حدث للأمير البرلي الذي انهزم على يد المغول وتفرق عنه أتباعه، وبالرغم من محاولة المغول استمالته بإقطاعه البلاد من جهتهم فإنه تجاهل عرضهم وراسل بيبرس واستأذنه في دخول الشام فأذن له وعفا عنه وأنعم عليه بالمال والخلع عام 1261م. انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ30،ص 20-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص70-88،75-96.

30- الجوكندار: لقب من يحمل الجوكان مع السلطان في أثناء لعب الكرة، وجمعها "جوكان دارية" وتعني "مُمسك الصولجان". انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ5، ص458.

وأيضًا: النويري: نهاية الأرب، جـ30، 21-22.

31- عن الأشرف موسى وبقية أمراء المماليك والعربان ودورهم في معركة حمص الأولى انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص63-68.

ويرى ابن أيبك أن معركة حمص الأولى - التي اختزل أحداثها في عدة أسطر وكذلك النويري - كانت أفضل من وجهة نظره من معركة عين جالوت، ويُعلل رأيه بأن المغول كانوا في أعداد كثيرة للغاية برغم أنه لم يذكر لهم سوى ستة ألاف فارس. انظر: ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص68. وأيضًا: ابن كثير(الحافظ عماد الدين بن كثير ت 774هـ): البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، 1998م، جـ17، ص423.

32- المرقب: حصن يقع على الساحل الشامي، بينه وبين انطرسوس ما يقرب من ثمانية أميال، والحصن مشهور بالقوة والحصانة، وظل بيد فرقة فرسان الاسبتارية الصليبيين الذين دعموا المغول ضد المماليك. انظر: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص85-86.

33- عن التحالف بين المغول وأوربا بعد معركة عين جالوت انظر:

The Templar of Tyre, pp.100-101; The Chronicle of Bury St. Edmonds, trans. by Antonia Grandson, London, 1964, p.63; Meyvaert, "An unknown letter of Hulagu, Il-Khan of Persia to king Louis IX of France", in Viator, (Vol.11, 1980), pp.245-261. See also: Ryan, (J. D.); The Interrelation of the Oriental Mission and Crusades Activities of the Papacy Under Nicholas IV (1288-1292)", Ph. D. thesis, New York university, 1972, pp.18-25; McLean, "An Eastern Embassy to Europe in the Years 1287-8", in E.H.R, vol.14, no. 54 (Arr., 1899), pp.307-313; Turner, "Unpublished notices of the Edward I, especially of his relation with the Mongols sovereigns

of Persia", in A.J.(vol. VIII, 1851), p.48.

وأيضًا: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ3، ط3، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، 1993م، ص675؛ فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ من جنكيز خان إلي هولاكو خان، القاهرة، 1960م، ص194؛ عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا أثرها علي العالم الإسلامي، دار عين، القاهرة، 1997م، ص35-120،59-122.

وعن المشروعات والتقارير الأوربية لغزو العالم الإسلامي وفشل تحالف أوربا مع المغول انظر: مارينو سانودو: كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها، ترجمة: وليم رزق الله، راجعه سمير خادم، القاهرة، 1991، ص9-70، 120-182،136-209، 260-274. وأيضًا: جمال فاروق الوكيل: تطور إستراتيجية الحروب الصليبية في القرن الرابع عشر الميلادي في ضوء كتابات مارينو سانودو، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، 2006م، ص26-49، 88-129. وأيضًا:

Guzman, "Simon of Saint-Quentin and the Dominican mission to the Mongol Baiju: A Reappraisal", in: Speculum, vol.46 (April, 1971), pp. 232-249; Nowll, "The historical Prester John", in: Speculum , vol. 28, no. 3 (jul., 1953), pp.435-455; De Rachewiltz, Papal envoys to the great khans, (London, 1941), pp.14-40.

1-The Chronicle of Bury st. Edmonds, p.63. See also: Fiey, Chretiens syriaques sous les Mongols, pp. 39-40, 70-71.

34- قدم الصليبيون مساعدة للمغول حينما دخلوا حلب في تلك الأحداث فقرر قلاوون محاربتهم، ولكن رجاله انهزموا وقُتل أكثر من مائتين منهم، فذهب قلاوون للقائهم بنفسه وذلك في حدود عام 679هـ. انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص681-683.

35- عن الصورة التي وُصف بها بعض العربان الذين شاركوا في معركة حمص الثانية يقول القلقشندي: "...أقبل آل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسومة

والجياد المطهمة وعليهم الكزغندات الحمر الأطلس المعدني والديباج الرومي وعلى رؤوسهم البيض مقلدين بالسيوف وبأيديهم الرماح...". انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص435.

36- يُعد جوزيف دو كانسي – صاحب رواية معركة حمص التي ضمنها رسالته – أحد فرسان الاسبتارية في مملكة بيت المقدس في عكا، وقد بعث برسالة طويلة إلى إدوارد الأول Edward I (1272-1307م) ملك انجلترا الذي رد عليه برسالة يشكره فيها على التقرير الوافي الذي ضمنه أحوال الشرق عموماً وأخبار معركة حمص الثانية خصوصًا، وذيل دو كانسي رسالته بتاريخ 31 من أيار دون أن يحدد العام.

ونظرًا لأن الملك إدوارد قد رد على رسالة دو كانسي عام 1282م وقد حدثت المعركة سنة 1281م ومن ثم فإن هذا يعني أن رسالة دو كانسي كُتبت بين مايو 1281 ومايو 1282م في وقت قريب للغاية من وقت حدوث المعركة، ولأن المعركة حدثت في 14 من رجب 680هـ/ 29 من أكتوبر 1281م، فهذا يعني أن الخطاب قد بُعث به في اليوم الأخير من مايو من عام 1282م. انظر:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy to king Edward I of England, The library of the Palestine Pilgrims' Text Society (Volume5, (London, 1896), (Index) pp.1-8, 13.

37- The Templar of Tyre, III, p.408.

38- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص.574

39- اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص.144

40- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص.686

41- تنبه داوي صور إلى مصاحبة الملك الأرمني لغازان وقال عنه أنه يشبه إلى حد كبير أمراء الفرنجة (الصليبيين) في بلاد الشام. انظر:

The Templar of Tyre, III, p.407.

42- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.
43- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.
وأيضًا: النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص8-9.
44- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.
45- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص574.
46- اليافعي: مرآة الجنان جـ4، ص144.
47- بيبرس المنصوري: مختار الأخبار(تاريخ الدولة الأيوبية والدولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ)، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1993م، ص73.
48- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص21-22؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص692.
49- ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص282.
50- أرغون خان: هو الابن الأكبر لأبغا خان بن هولاكو ورابع خانات المغول الإيلخانيين حكام فارس، تولي الحكم عقب اغتياله لعمه أحمد تكودار عام 1284م/683هـ.
51- The Templar of Tyre, III, p.591.
52- واصل أرغون سياسة والده أبغا خان في محاولة التفاهم مع الغرب لإيجاد وسيلة للتحالف ضد المماليك، فأرسل بأربع سفارات إلى أوربا على غرار والده في أعوام 1285م، 1287م، 1289م، 1290م، وقد ألح فيها على ضرورة القيام بعمل عسكري مشترك للتصدي لدولة المماليك وتدميرها، ولكن لم يُقدر النجاح لسفاراته هو الآخر على ما حدث مع والده. انظر: محمد فوزي رحيل: نهاية الصليبيين، دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2009م، ص321. وعن مراسلات أرغون بالبابوية انظر:
Turner, "Unpublished notices of the Edward I, especially of his relation with the Mongols sovereigns of Persia", in

A.J.vol. VIII, 1851, p.48; Sinor, "Mongols and western Europe", p.531; Ryan, The Interrelation of the Oriental, pp.9-25, 71-82; 93-229; McLean, "An Eastern Embassy to Europe in the Years 1287-8", in E.H.R, vol.14, no. 54 (Arr., 1899), pp.307-313.

53- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7.

54- حينما استهل عام 680هـ وقد قرر قلاوون الذهاب إلى الشام وردته رسل الصليبيين في طلب تجديد الهدنة مع الإسبتارية وبقية الصليبيين في عكا لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشرة ساعات تبدأ في 12 من محرم 680هـ، وبعدها بقليل وردته رُسل بوهيمند أمير طرابلس في عقد هدنة مدتها عشرة سنوات أيضاً تبدأ في 17من ربيع الأول. انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص.685

55- السيد الباز العريني: المغول، دار النهضة العربية (بيروت)، 1406هـ/1986م، ص299-.300

56- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.7-12.

57- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص.21

58- LeBlévec, (Daniel), Cartulaire du prieuré de Saint-Gilles de l'Hôpital de Saint-Jean de Jérusalem (1129 - 1210), (éd.) Daniel LeBlévec, (Paris, 1997), III, pp.417-418.

59- عن تحركات المغول في بلاد الشام قبيل عين معركة حمص الثالثة واتصالاتهم بالأمير قبجق انظر: ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص375-.376

60- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص878-882؛ 888-.889

61- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص241. وأيضًا:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, p. 471.

62- The Templar of Tyre, III, pp.601-602.

63- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص886.

64- Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp.471-472.

65- The Templar of Tyre, III, p.610.

66- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص241.؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص886-888؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص13-18.

67- The Templar of Tyre, III, p.593.

68- The Templar of Tyre, III, p.610.

69- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص421؛ النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص241.

70- The Templar of Tyre, III, p.611.

71- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص421؛ النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص68-69.

72- أشار بعض المؤرخين إلى أن معركة حمص الثانية لم يُر مثلها منذ عصور سلفت، وقيل إن وقت القتال بدأ من الضحى حتى نهاية النهار وقيل: بل بدأ من الثالثة على ما ذهب دو كانسي أو الرابعة على قول المقريزي وحتى مغرب الشمس، وأن المغول لم يعتدوا هذه العدة منذ عشرين سنة. انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص692؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص244-245. وأيضاً:
Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, p.7-11.

73- كان في الميسرة المملوكية المنكسرة سنقر الأشقر والحلبي وركن الدين الجالق وبمك الناصري والجاشنكير والأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح والأمير علم الدين الحلبي ومن معهم والتركمان وعسكر حصن الأكراد، وفي رأس الميسرة الأمير حسام الدين طرنطاي مع جماعته وبعض الأمراء في الجاليش. انظر: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص21-22؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص244-245.

74- تضمنت الميمنة المملوكية كل من الأمير بدر الدين بيسري والملك المنصور صاحب حماه والأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيري وآل فضل وآل مري وغيرهم من العربان. انظر: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص21-22.

75- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8.

76- أشار النويري إلى أحد مماليك الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الصالحي الذي انضم إلى المغول وحارب في صفهم ضد المماليك، ولكن لم يُشر إلى اسمه فربما كان هو المملوك الذي أطلق عليه دو كانسي سنقر التتري، أما جوزيف دو كانسي فإنه أطلق عليه Samgar. انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص21. وأيضًا:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, p.8.

77- بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73. وأيضًا:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9.

78- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9.

79- رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جـ2، القسم الثاني، ص83؛ ابن حبيب: تذكرة التنبيه، ط1، مطبعة دار الكتب المصرية، 1976م، جـ1، ص62-63؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ7، ص298-299. وأيضا: عباس إقبال: تاريخ إيران، ص447.

80- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-10.

81- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص692.

82- اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص144.

83- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9.

84- يختلف بيبرس المنصوري مع ابن كثير في أن ميمنة المماليك انتصرت على ميسرة المغول، ولكن يبدو أنه خلط بين القلب والميسرة لدى المغول حينما علق على انهزام ميسرة

المغول بانهزام منكوتمر الذي كان في القلب وليس في الميسرة، وفي هذه الحالة فإنه يكون متفقاً في ارتباكه مع دو كانسي أو أنه قصد أن هزيمة ميسرة المغول قد وصلت إلى جناح القلب فأثرت على قوته، ثم أقر بيبرس المنصوري بأن ميمنة المغول هزمت ميسرة المماليك وطاردت سنقر حتى سد حمص بعد عبور سنقر الأشقر نهر العاصي هاربًا. انظر: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص.73

85- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9. وأيضًا: النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص23؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص.574

86- يُشير دو كانسي إلى أنه ترتب على قوة شخصية السلطان وثباته في أرض المعركة نجاحه في جمع رجاله بعد أن أمر بضرب النفير وصرخ فيهم، فاجتمع حوله من ظلوا على قيد الحياة وعددهم 600 رجل، ولكن يبدو ان دو كانسي خلط بين القوة المحيطة بالسلطان والمرافقة له وبين بقية جيشه، لكن اعتقاد المغول بانتصارهم دفعهم لجمع الغنائم والأسلاب وعلى رأسها استبدالهم خيولهم الضعيفة بخيول المماليك القوية والسريعة، وفي ظل حالة الارتباك التي أثارها المغول ظناً بأن المعركة انتهت لصالحهم ولبحثهم عن الغنائم وإثارة الغبار في أرض المعركة فقد تحرك السلطان صوبهم لمعرفة ما يحدث فوجد منكوتمر الذي ظن بدوره أنهم جنوده وكان معه فقط ما يقرب من 200 رجل لأن ميمنة جيشه بقيادة الملك لو كانت قد ابتعدت في مطاردة ميسرة المماليك في اتجاه دمشق.

ويتفق كل من ابن كثير ودو كانسي في ثبات السلطان مع القلب بالرغم من حرمانه من ثبات جناحيه في الميسرة والقلب، وان كان لذلك الثبات دور خطير في تفوقه وانتهاء المعركة لصالحه حينما عاد الأمراء المنهزمين مرة أخرى ليقفوا مع السلطان "...ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان... مثل سنقر الأشقر، وبيسرى، وطيبرس الوزيري، وبدر الدين أمير سلاح، وايتمش السعدي، وحسام الدين لاجين، وحسام الدين طرنطاي، والدوادار وأمثالهم لما رأوا ثبات السلطان ردوا إلى السلطان وحملوا حملات متعددة صادقة، ولم يزالوا

يتابعون الحملة بعد الحملة حتى كسر الله بحوله وقوته التتر، وجرح منكوتمر، وجاءهم الأمير عيسى بن مهنا من ناحية العرض فصدم التتر فأضربت الجيوش لصدمته، وتمت الهزيمة ولله الحمد". انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص574. وأيضًا:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.9. See also: The Templar of Tyre,III, p.591.

87- أقر كل من ابن أيبك والمقريزي في سبب جرح منكوتمر وهربه وانهزامه أن منكوتمر حينما رأى هزيمة ميسرته فإنه نزل إلى الأرض ليرى من أسفل الخيول حجم القوات المصاحبة لقلاوون فلم ير آخرهم من دواب الحمل والمؤن "... فظن أن ذلك كله مُقاتله، وأرمى الله الرعب في قلبه فركب فرسه وولى هاربًا..." لظنه أن عدد المسلمين أكبر بالرغم من أنه لم يزد عن ثلاثمائة مع السلطان وألف مع والد ابن أيبك الدوداري بقيادة علم الدين زريق الرومي، فهلع وعزم على الهرب ولكنه قُنطر فسقط فنزل أصحابه لحمايته فتابعهم المماليك وتغلبوا عليهم، وقيل بل قام الأمير عز الدين الحاج أزدمر بحملة شجاعة وطعن منكوتمر فسقط فانكب المماليك على المغول ولحقوهم وهزموهم. انظر: ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص343-344؛ المقريزي: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص690-691؛ وأيضًا: النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص23-24.

88- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.9; The Templar of Tyre,III, p.408. 593.

89- عيسى ابن مهنا: من أمراء العربان الذين شاركوا على رأس العربان في حمص الثانية وقاد الميمنة المملوكية التي انهزمت أمام ميسرة المغول ولكنه عاد ومعه العربان لمؤازرة السلطان في القلب وكان لصموده هو وغيره مع السلطان دور في الانتصار. ولأسرة مهنا تاريخ عريق في محاربة المغول والصليبيين، بحيث كان مهنا بن عيسى كبير المقام وله صيت ذائع وكان مقربا من سلاطين المماليك بعدئذ، وقد رفض مهنا بن عيسى عرضًا من المغول بمحالفتهم ضد المماليك، وأفرد له موسى بن محمد اليوسفي ترجمة كبيرة في كتابه نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر. انظر: اليوسفي (موسى بن محمد يحي ت 709هـ): نزهة الناظر في سيرة

الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، عالم الكتب، 1986م، ص89-91، ص198-211؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص886؛ الشجاعي: تاريخ الملك الناصر، ص.37

90- ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص245. وأيضًا:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp. 328.

91- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.8-9. See also: The Templar of Tyre,III, p.408.

92- The Templar of Tyre,III, p.591.

93- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.10-11.

94- كان للمصادر المملوكية رأي مخالف فيه واقعية وأكثر منطقية في تفسير فقدان الملك ليو لرجاله على تلك الشاكلة، فأشار ابن أيبك إلى قيام السلطان "...بلف السناجق في ذلك اليوم على رماحها حتى لا يُعلم بمكانه..."، وذلك للتحايل على ميمنة المغول العائدة للمرور بأرض المعركة ثم انقض عليها قلاوون وطاردها، وأضاف بيبرس المنصوري أن ميمنة المغول قررت الانسحاب وعدم مقاتلة قلاوون، ويُعلل بيبرس المنصوري ذلك الانسحاب نتيجة لمعرفتهم بهزيمة باقي الجيش ولأجل ذلك غادروا أرض المعركة دون الالتحام مع السلطان في معركة لا يعرفون لها نتيجة مضمونة.

وأكد المقريزي أن مغول الميمنة رعوا خيولهم عند مرج حمص انتظاراً لقدوم بقية المغول وهم لا يعلمون بما جرى، وحينما بعثوا بمن يقف على أخبارهم وعلموا بهزيمتهم وفرار منكوتمر فإنهم لاذوا بالفرار أيضاً، وحينما عادوا للمرور بأرض المعركة أمر السلطان بلف السناجق وبوقف الضرب على الكوسات فمر هؤلاء فأمر قلاوون بمهاجمتهم فهزمهم، ولو أنهم عادوا لهزموا السلطان وقتلوه ومن معه ليس لقلة من معه فحسب وإنما لأنه لم يعد بهم قوة. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص574- 476؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص343؛ بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص693-695.

وأيضًا:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp. 329-330.

95- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.10-11.

96- أشار ابن أيبك إلى مطاردة المغول التي حدثت في اليوم التالي للمعركة وقادها الأيدمري مصطحباً خمسة آلاف جندي حتى النهر الأسود، فقتل الكثير وأسر خمسمائة وكان العدد قابل للزيادة لولا أن عرب خفاجة دلوا كبار أمراء المغول على طرق الهرب ومسالكه إلى بلادهم.

كما قدم المقريزي تفصيلاً لعملية المطاردة حينما بعث الأيدمري من حلب في متابعة المغول إلى الفرات ففروا وغرق منهم الكثير، وقاتل أهل ألبيرة بعضهم نحواً من خمسمائة وأسروا مائة وخمسين، وتوجه منهم نحو ألف وخمسمائة فارس إلى بغراس فقتل أكثرهم وأُسر الكثير منهم، وحينما هرب نحو أربعة آلاف نحو سلمية فقد أُخذت عليهم الطرقات والمعابر فساروا إلى البرية ليموتوا عطشًا وجوعًا، ولم يسلم منهم سوى ستمائة فارس فخرج عليهم أهل الرحبة فقتلوا أكثرهم وأحضروا بعضهم إلى الرحبة فدقت أعناقهم بها. انظر: ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص343-344؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص698. وأيضًا: بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص73-74. وأيضًا:

Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp.244-245.

97- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ17، ص574-476. وأيضًا:

Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.10-11; The Templar of Tyre,III, p.408.

98- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص695-696.

99- أبغا خان: هو الابن الأكبر لهولاكو خان وقد خلف والده في حكم دولة مغول فارس منذ 664هـ/1265م حتى توفي عام 681هـ/1282م.

لمزيد من التفاصيل عن أبغا خان انظر: رشيد الدين: جامع التواريخ، جـ1، ص 223. وأيضًا: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين، ص33-117؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (205هـ/ 820م- 1343هـ/1925م)، ترجمة وتعليق: محمد علاء الدين منصور، مراجعة: السباعي محمد السباعي، القاهرة، 1989م، ص443-449. وأيضًا:

Fiey, Chretiens syriaques sous les Mongols, pp. 33-40; Bertold, Geschichte der Mongolen: nach östlichen und europäischen Zeugnissen des 13. und 14, Jahrhunderts, 1968, pp.152-153, 192-194.

100- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت: 748هـ): العبر في خبر من غبر، تحقيق وضبط: هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، جـ5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص326؛ رشيد الدين فضل الله الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من آباقاخان إلى كيخاتوخان، دار إحياء الكتب العربية، ص:83. وأيضاً: عبد السلام عبد العزيز فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، 1981م، ص162-164. وأيضاً:

Jean Richard, The Crusades, C. 1071-c. 1291, Cambridge University Press, 1999; p. 453.

101- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص23-25؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص693.

102- الأمير سيف الدين سلار: ينحدر من أصل مغولي أويراتي، وقد أسره المماليك في معركة أبلستين، ودخل في خدمة الصالح علي والأشرف خليل ابنا السلطان قلاوون، وأصبح نائباً للسلطنة في عهد السلطان لاجين، واستمر فيها خلال فترة حكم الناصر محمد الثانية، ثم قبض عليه الناصر محمد في فترة حكمه الثالثة وسجنه حتى الموت. عن دور الأمير سلار في أحداث هذه الفترة انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص681-937؛ ابن أيبك:

كنز الدرر، جـ8، ص230-240.

103- حسام الدين لاجين الأستادار: هو حسام الدين لاجين الرومي أستادار السلطان قلاوون، ويُعرف أيضاً بلقب الحسام لاجين أستادار، وقد قُتل في معركة شقحب أو مرج الصفر سنة 702هـ/1303م وهو بخلاف حسام الدين لاجين الذي تسلطن وتوفي في سنة 1299م.

أما حسام الدين لاچين المعروف بالصغير تمييزا له عن الآخرين الذين حملوا الاسم ذاته فهو من مماليك السلطان نور الدين علي بن أيبك، ثم اشتراه قلاوون، وحينما تسلطن قلاوون فإنه اعتقه ورفع منزلته وعينه نائباً على دمشق وزوجه من إحدى بناته، ثم أعلن لاجين نفسه سلطاناً على دمشق حينما خرج سنقر الأشقر على قلاوون فقبض عليه الأخير وحبسه لمدة عامين ثم عفا عنه وعينه نائبًا للسلطنة لمدة 11سنة حتى تسلطن الأشرف خليل فعزل لاجين وقبض عليه وحُكم عليه بالإعدام، ولكن سرعان ما عفا عنه الأشرف بشفاعة الأمير بدر الدين بيدرا المنصورى وعينه سلاح دار. وكان لاجين ضمن الأمراء الذين تآمروا على اغتيال الأشرف خليل سنة 1293م، واختفى ولم يظهر في القاهرة سوى بعد تنصيب الناصر محمد سلطانًا على مصر، وشفع بعض الأمراء للاچين عند الناصر فعفا عنه مما اغضب مماليك الأشرف خليل وتمردوا عليه، فقام لاجين بنصح كتبغا بعزل السلطان الناصر محمد وتنصيب نفسه قبل أن ينتقم منهم مماليك الأشرف أو السلطان الناصر نفسه. وفي سنة 1295م عمل الأمير كتبغا بنصيحة لاچين وعزل السلطان الناصر ونصب نفسه سلطانًا على مصر وعين لاجين نائبًا للسلطنة، وتوفي لاجين سنة 1299م. انظر: انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص681-937؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص230-240، جـ9، 13-17. وأيضًا: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسى والاجتماعي, عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية, القاهرة 2007م؛ شفيق مهدي: مماليك مصر والشام, الدار العربية للموسوعات, بيروت .2008

104- ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص17-18؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق3،

ص886-887.

105- اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص172-173. وأيضًا:
Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, pp.471-472.

106- المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص887؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص17.

107- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص241؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص887.

108- يُشير النويري إلى أن قبجق أخبر السلطان الناصر حينما اصطلحا بعدئذ أنه حينما نصح غازان بالثبات ومهاجمة المماليك فإنه كان يقصد أن يدفع بغازان كي يتم أسره من قبل المماليك عقب هزيمته. انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص241.

109- Moufazzal Ibn Abil-Fazail, Histoire des Sultan Mamlouks, II, p.472.

110- The Templar of Tyre, III, p.602.

111- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص887.

112- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص241-242.

113- يعلق ابن أيبك على توقف المغول عن متابعة المماليك في اليوم الأول من أحداث المعركة بأنه كان بمثابة رحمة إلهية وبخاصة أنه كان بمقدور المغول المتابعة والاستيلاء على البلدان الإسلامية بسبب الحالة المزرية التي عانى منها المماليك بهروبهم على تلك الشاكلة. انظر: ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص17-18.

114- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص344-246؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص888-889. وأيضًا: اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص172.

115- ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص68.

116- الدودار: زبدة الفكرة، ص67؛ النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص21-22؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص115.

117- عن الصلح الذي تم بين الظاهر بيبرس وشمس الدين البرلي انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص36-37.

118- النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص24-25.

119- النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص27.

120- النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص37-38.

هدفت الدبلوماسية المملوكية إلى تخفيف ضغط مغول فارس عن بلاد الشام من خلال العلاقات الدبلوماسية مع المغول القفجاق، بحيث بات ضروريًا وضع حد للمغول الإيلخانيين، ولما كان بيبرس يريد ادخار قوته العسكرية لكي لا تتبدد في المواجهة مع مغول فارس فإنه لجأ إلى الدبلوماسية لتساعده في تحقيق مرماه، ولم يجد خيرًا من المغول القفجاق في ظل العداء المشترك الذي جمع بين المماليك وبين المغول القفجاق ضد الإيلخانيين، ومن ثم الوصول إلى نوع من توازن القوى؛ فإذا كان المغول الإيلخانيين يتصلون بأوربا والصليبيين في الشرق في إطار مشروعات عسكرية لضرب المماليك ووضعهم بين شقي الرحى، فقد تحالف المماليك مع مغول القفجاق لوضع المغول الإيلخانيين في الموضع ذاته.

وقد ترتب على اعتناق بركة خان حاكم المغول القفجاق للإسلام قيامه بدور كبير في التقارب بين المماليك والمغول القفجاق، يُضاف إلى ذلك أصل الظاهر بيبرس الذي يعود إلى بلاد القفجاق مما أوجد نوعاً من الارتباط العاطفي مع دولة مغول القفجاق، ناهيك عن رغبة الظاهر بيبرس في استمرار تدفق الرقيق من بني جنسه من مصدره في منطقة القفجاق، ومن المعروف أنهم عماد الجيش المملوكي. انظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص139. وأيضًا: فؤاد الصياد: الشرق الإسلامي، ص 42. انظر أيضًا:

Irwin, The Middle East in the Middle Ages, p.51.

121- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص24-25.

122- عن معركة مرج الصفر انظر: المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص897-898، 930-938.

123- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص26-27.

124- محمد فوزي رحيل: نهاية الصليبيين، ص50-300.

أتت ثمار نشر الإسلام بين مغول فارس أُكلها على المدى البعيد حينما اعتنق الخان القادم للمغول أحمد تكودار Teguder-Ahmad (1282-1284م) الإسلام وطلب محالفة دولة المماليك. ولكن لم تدم السلطة في يد تكودار أحمد لأنه قُتل نتيجة لعلاقاته الطيبة بالمماليك. عن الرسائل المتبادلة بين تكودار أحمد وقلاوون انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص219-227. وأيضًا: رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ،، تاريخ غازان خان، دراسة وترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، 1998م، ص604-607. وأيضًا:

Fiey, Chretiens syriaques sous les Mongols, pp.41-43.

125- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص242؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص888.

126- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص242؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص888.

127- اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص172؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص17-18. وعن قتلى حمص الثالثة انظر: الدودار: زبدة الفكرة، ص332.

128- النويري: نهاية الأرب، جـ31، ص248-251؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص172-173؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص838-930.

129- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص878-882؛ 888-889.

130- المقريزي: السلوك، جـ1، ق3، ص885.

وأيضاً:

The Templar of Tyre, III, p.604.

131- ابن أيبك: كنز الدرر، جـ9، ص15-16.

132- The Templar of Tyre, III, p.607.

133- الدودار: زبدة الفكرة، ص331-332.

134- رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ص604-607.

135- Joseph De Cancy, Letter of Joseph De Cancy, pp.9-11.

136- النويري: نهاية الأرب، جـ30، ص23-24؛ جـ31، ص257-259؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـ8، ص68-69.

137- اليافعي: مرآة الجنان، جـ4، ص172؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص888.